2272
.619
.377

2272.619.377
Coppèe
Riwāyat Fī sabīl al-tāj...

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 072565714

رواية

في سبيل التاج

بقلم المرحوم

مصطفى لطفي المنفلوطي

وهي خلاصة رواية تمثيلية بهذا الاسم للكاتب الفرنسي الشهير

فرنسوا كوبيه

مع بعض تصرف

تطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

[حقوق الطبع محفوظة]

الطبعة العاشرة

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

شارع نوبار باشا ١٢

١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م

Coppée, François

روايةُ

Riwāyat Fī sabīl al-tāj

في سبيل التاج

بقلم المرحوم

مصطفى لطفي المنفلوطي

وهي خلاصة رواية تمثيلية بهذا الاسم للكاتب الفرنسي الشهير

فرنسوا كوبيه

مع بعض تصرف

تطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد على بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

[حقوق الطبع محفوظة]

الطبعة العاشرة

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

شارع نوبار باشا نمرة ١٢

١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م

إهداء الرواية

إلى البطل المصرى العظيم

سعد زغلول باشا

« تشرحُ هذه الروايةُ سِيرةَ بطلٍ من أبطالِ الوطنيةِ العاليـة »
« قد جمع الله له من صفات الشجاعةِ والثبات والعزيمة والغيرةِ »
« والإخلاص والتضحية ما جمع لك منها ، فأْذن لى أن أُهدىَ »
« روايتَه إليك ، وأن أُقدمَ البطلَ البلقانىّ ، إلى البطلِ »
« المصرىّ ، لتأنَسَ روحُ كلٍّ منكما برُوحِ صاحبِه وإن باعَدَ »
« بينكما الزمن ، واختلفتْ بكما الدار ، فإن تفضّلْتَ بقبولِ »
« هَديّتى وما أحْسَبُك ضانًّا بذلك علىّ ، فلتكنْ جائزتى عِندك »
« عليها أن تَشهدَ لى بينك وبين نفسِك أننى قد وضعتُ »
« لَبِنةً (1) صغيرةً فى ذلك البناءِ الضّخْمِ الذى شِدْتَه لأمتك »
« ووطنِك ، وحَسْبى ذلك وكَفَى » ؟

مصطفى لطفى المنفلوطى

أول يونية سنة ١٩٢٠

---

(١) اللبنة ـ واحدة اللبن ـ ككلمة وكلم : وهو المضروب من الطين مربعاً للبناء .

2272
.619
.377

مقدمة

لحضرة الكاتب الشهير : حسن بك الشريف

انصرفتْ عقولُ الكُتّابِ والمفكرين فى هذه الأيامِ وفى جميع البلادِ إلى الاشتغالِ بالمسائلِ السياسيةِ والمشاكلِ الاجتماعيةِ التى أوجدتْها الحربُ الأخيرة ، وانصرفت الأقلامُ وراء العُقولِ تُحاولُ إنارةَ السبيلِ لقادةِ الشُّعوب عَلَّهم يستطيعون إقالةَ هذا العالَمِ من عَثْرَتِه .

ولقد كان من جَرّاء ذلك أن أُهمل الأدبُ إهمالا نَزَل به إلى مَرتبةٍ دونَ التى كان يشغلُها فى نفوس القرّاء والمؤلفين ، فانحطَّ التأليفُ الأدبيُّ انحطاطا قد يستمرُّ ما استمرتْ حالةُ العالمِ على ما هى عليه .

ولم يكن تأثيرُ هذه الأزمةِ الأدبية فى مصرَ بأقلَّ منه فى غيرها ، إذِ انصرفَ معظمُ الأدباء عن فنِّهم وعلى الأخصّ فى السنةِ الأخيرة إلى الاشتغال بقضيتنا ، السياسيةِ الكُبرى ، فانقطع ظُهورُ الكتبِ الأدبيةِ أو كاد ، وأوشكتْ مسارحُ التمثيلِ أن تُغْلِقَ أبوابَها لقلةِ ما يقدَّمُ إليها من الروايات ، ورأتْ صحفُ الأدبِ أن لا بقاء لها إلا إذا وَلَّتْ وجهَها شَطْرَ السياسةِ فوقفتْ جُلَّ أعمدَتِها على شرحِ

وتأويلِ ما يحمِلُه إلينا البرقُ من الأخبار ، وبذلك وقفتْ نهضتُنا الأدبيةُ منتظِرةً أن تَمُرَّ العاصفةُ وتصفُوَ السماء فتستأنفَ سَيرَها ويعودَ إليها عِزُّها ونشاطُها ، بَيْدَ أن العنايةَ الساهرةَ على الفنُون قد أَبَتْ أَنْ تَذْبُلَ شجرةُ الأدب فى مِصر ولما تَيْنَعْ أزهارُها ، فلم تَدَعِ السياسةَ تستأثرُ بأقلامِ جميعِ الكتاب ، بل أبقت للأدبِ أئمتَهُ وأنصارَه ، فلم يُوْيِسْهم شغفُ الجمهورِ بسياسةِ العالم وانصرافُه عن كلِّ ما عداها ، وظلُّوا رافعينَ لواءَ فنِّهم فى وسطِ الزوابعِ والأعاصيرِ عالمين أَنَّ الأدبَ أَفْيَدُ (١) غذاءٍ لرُوح الأمة وعقلِها ، وأكبرُ مُهَذِّبٍ لإحساسِها وشُعورِها .

فى طليعة هذا النَّفَرِ من أئمةِ الفنِّ وخُدَّامِه ، لا أتردَّدُ فى ذكرِ آسمِ السيدِ « مصطفى لطفى المنفلوطى » الذى لم يبخلْ على قرائِه العديدين (٢) بأُوْيقاتِ فراغِه فوَقفها على الكتابةِ والتأليف ولم تَحُلْ أعمالُ وظيفتِه الحكوميةِ بينه وبين أن يُخرجَ للناس بِضْعَةَ مؤلفاتٍ قيِّمةٍ آخرُها هذه الرواية الشيِّقة الممتِعة « فى سبيل التاج » التى تُقدَّمُ اليومَ طبعتَها الرابعةَ (٣) إلى جُمهور القارئين .

* * *

(١) يريد : أكثر فائدة ، فإن الفعل الرباعى لا يصاغ منه « أفعل التفضيل » .

(٢) يعنى : الكثيرين ، واستعمال « عديد » بمعنى « كثير » خطأ شائع .

(٣) هذه الطبعة الأخيرة هى العاشرة .

فرانسوا كوبيه مؤلفُ « فى سبيل التاج » شاعر عَرَكَ صُروفَ الزمان وجَسَّ بأصبعِه مصائبَ الإنسان ، فلم تَزِدْ قلبه مناظرُ البؤسِ والفاقةِ إلا ليناً وحناناً ، حتى إنّ القارئَ لا يَرَى فى شِعرِه إلا عَبرةً حارّة أرسلتْها عيناهُ إشفاقاً وحُنُوًّا على الذين تخطتهم السعادةُ وغضبتْ عليهم الحياة ، حتى لَقَّبه عارفوه بحقّ « مُعَزِّى المنكودين والبائسين ، وشاعرَ الضعفاء والمحزونين » .

وُلد كوبيه سنة ١٨٤٢ ولم تُمَكِّنْه بِنْيَتُه السقيمةُ من تتميمِ دراستِه ، فانقطعَ عن تَلَقِّى الدُروسِ فى معاهدِ العِلم ، وانصرف إلى قراءةِ الكُتب والاطلاع على أوضاعِ الأقدمين ، وكان يَشْعُرُ بِمَيلٍ شديدٍ غريزىٍّ إلى الشعر ، فنظم منه بِضْعَ قصائدَ لم تُصادفْ إعجاباً من الذين أَسْمَعَهُمْ إياها ، فرأى أنّ النارَ أحقُّ بها من المطبعة ، فأحرَقَها ، وطلَّق الشعرَ وهجر الأدب ، وسَعَى حتى حصَل على وظيفةٍ فى الحكومة استولى عليها ظَنًّا أنه لم يُخْلَقْ لصناعةِ القلم وأنَّ رغبتَه فى الشعر ماهى إلا نزعةٌ مفتون تصبو نفسُه إلى مالا قِبَلَ له به ولا طاقةَ له عليه .

بَيْدَ أَن الفطرةَ ما لبثتْ حتى غَلَبت اليأسَ فى نفسِ الشاب ، فعاد إلى القصائدِ ينظمُ منها اليوم ما يُمَزِّقُهُ فى الغد ، حتى وُفِّق لكتابة « صُندوق البغايا المقدَّسة » (Le Reli Puaire) ونَشَره بين الناس فصادفَ رواجاً وإقبالا شَجَّعاه على الاستمرار والمُثابرة ، وزادَه تشجيعاً أنْ

صارتْ بعضُ منظوماتِهِ تُتْلَى على المسارحِ وفى الحفلات . وما زالت شُهرتُه تنمو حتى اهتمّتْ بشأنِه إحدى الممثلاتِ الشهيرات (مدام أجار) ورأتْ فيه قابليّةً للتأليفِ التمثيلى ، فنصحتْ إليه بكتابة شيءٍ للمسرح ، فعمِل بنصيحتِها وكتَب « عابر السبيل » (Le Passant) وهى روايةٌ ذاتُ فصلٍ واحد ، ماكادت تظهرُ حتى تخاطفتْها المسارح ومثّلتْها (سارا برنار) فطار صِيتُ المؤلفِ الشاب وذاعت شهرتُه وأقبلَ عليه مُديرو المسارحِ يلتمسون منه المزيد .

ومن سنة ١٨٦٨ نَشر كُتباً شِعريةً متتابعةً أهمُّها « المودات » (Intimités) و « أعْتصاب الحدّادين » و « المتواضِعون » وبعض قِصص نثرية منها « المجرم » (Toneune) و « شيونيه » (Jeunesse) وكثيرٌ من الرواياتِ التمثيلية ، نَخُصُّ بالذكر منها « عواد كريمون » (Le Luthier de Grêmone) و « مدام ده مانتنون » و « سيفير ونوريلى » و « فى سبيل التاج » .

وفى عام ١٨٨٤ انتُخب عضواً بمجمعِ علماءِ فرنسا ، ثم آنكبَّ على السياسة وسار فيها شَوطاً بعيداً كاد يُنسيه الشعرَ والأدب ، وتُوفّى سنة ١٩٠٨ وهو رئيسٌ فخرىٌّ لجمعية الوطن الفرنسوية (١) .

هذا ملخّصُ حياةِ ذلك الشاعرِ النابغةِ الذى امتاز على أقرانه بأنه

---

(١) النسب إلى فرنسا : فرنسى .

لم يُقَلِّدْ أحداً من الأوائل ولا المعاصرين (والتقليد يكاد لا ينجو منه شاعرٌ من الشعراء) وبأنَّ معظمَ المواضيع التى طَرَقَها كانت إلى عهده جديدةً لم يتقدَّمْ إليها قبله أحدٌ من المؤلفين . ولقد قال عنه أناتول فرانس مامعناه :

« إن نفثاتِ قلم هذا الشاعر قد أثَّرت فى جميع القلوبِ وتمكنت منها ، لأن أساسَها الطبيعة ، وأحسنُ ماَيبرَعُ فى الكتابةِ عنه ويصلُ فيه إلى أعلى طبقاتِ البلاغة ماكان له مَساسٌ بالمشاعر والأخلاقِ الاعتيادية والحقائقِ الواقعة . وهذا النوعُ من الكتابةِ لايتيسرُ إلا لأصحابِ الأذواق السليمةِ والذكاءِ المتوقِّد الخارقِ ، وهو يحتاجُ إلى مهارةٍ فائقة وبراعة زائدة ، فإن أقلَّ خطإٍ فيه لايلبثُ أن يبدوَ للعيانِ مجسّما ، وإنه وإن كان فى استطاعةِ كلِّ إنسانٍ مهما كانت منزلتُه من العلم أن يفهم هذا الشاعرَ ويتأثر بأغراضه ومراميه ، ولكن لايستطيع (١) أن يَسْبُرَ كُنْهَهُ ويتذوّقَ طعم أدبه إلا من رُزق حظا وافراً من العلمِ والذوق السليم ، وبالجملة فقراء هذا الشاعرِ العظيم كثيرون جدا ومن جميع الطبقات ، ولكن قرّاءه الحقيقيين قليلون » .

* * *

(١) هذا التعبير غير معروف فى العربية ، وهو من الأخطاء الشائعة على ألسنة الكتاب .

أما روايةُ « فى سبيل التاج » التى نحن بصددها فمأساة شِعرية تمثيليةٌ وضعها المؤلف فى سنة ١٨٩٥ وأراد أن يُجارىَ بها عميدى الشعر التمثيلى فى القرنِ السابعَ عشر « كورنى وراسين » وهى رواية أخلاقيةٌ بطلُها فتًى تعارضتْ فى نفسِه عاطفتان قويتان : حُبُّ الأسرة ، وحب الوطن ؛ فضحّى الأولى فِداءً للثانية ، ثم ضحَّى حياته فداء لشرفِ الأسرة ، ولقد تجلت فى هذه المأساةِ عبقريةُ الشاعر ومواهبُه الكبيرة ، فالأسلوبُ سهلٌ ممتنع ، والأفكارُ متسلسلةٌ متماسكة ، والوقائعُ جليّةٌ واضحة ، وأخلاق أشخاصِ الروايةِ تُفسّرُها أقوالُهم وحركاتُهم فلا غموضَ فيها ولا إبهام .

ولقد ذهب النُقّاد فى تقديرِ هذه المأساةِ مذاهبَ شتّى حتى قال بعضهُم : إنها خيرُ ما أُخرِجَ للناس من عهدِ راسينَ إلى يومِ ظهورِها .

قال الأستاذ « إيميل فاجيه » العضوُ بالمجمعِ العلمى الفرنساوىّ عن هذه الرواية فى الجزءِ الثالث من كتابِهِ « آراءٌ فى التمثيل » مامعناه :

إذا نظرنا إلى مافى الفصولِ الثلاثةِ الأولى من القوّة والمتانة والوُضوح مع البيانِ والبلاغةِ وحُسنِ التصوير : أمكنَنا أن نحكمَ بأن هـذه الرواية ستمثّلُ إلى ماشاء الله بدون أن يملَّها الجُمهور أو يشعُرَ بسَأمٍ من سماعها ، وأنّ « فرانسوا كوبيه » بكتابتِهِ للفصلِ الثالثِ منها على الأخصّ قد ضمِنَ لذكراه الخلودَ فى ذاكرة الأجيالِ المقبلة وهو الفصلُ المُعنْوَنُ فى التعريب

بِعُنوانِ « الجريمة » .

وقال الأستاذ « جول لومتر » العضوُ بالمجمعِ العلميِّ الفرنساوى فى الجزء التاسعِ من كتابِه « خواطرُ فى التمثيل » بعد أن أطنبَ فى وصفِ شاعِريَّةِ كوبيه وفى تقديرِ مواهبِه : إنّ رواية « فى سبيلِ التاج » لَهِيَ من صُنْعِ فتى قديرٍ وشاعرٍ عظيمٍ ورجلٍ ذى ضميرٍ حىّ وقلبٍ كبير ، وإذا كان فيها بعضُ النقص فهذا النقصُ لم يَخْلُ منه كورنى ولا فيكتور هوجو ولا غيرُهما من كِبارِ الفنيين .

وقال فى موضعٍ آخرَ من نفس الكتاب : إنّ المُشاهدَ لتمثيلِ روايةِ « فى سبيل التاج » ليَشعُرُ منذُ الْهُنَيْهَة الأولى براحةٍ واطمئنان ثم لا يلبث حتى يتأكد أنه سيشاهدُ عملًا مُتْقَناً وفنا نظيفاً ، ولقد يكونُ أحسنَ ما فى هذه القطعةِ تَنسيقُ الأفكارِ وتحليلُ العواطفِ وترتيبُ الحوادثِ وتصويرُ النُّفوسِ والأشخاص .

هذا رأىُ كبيرين من زعماء الحركةِ الأدبيةِ فى فرنسا نُوردُه هنا ليعلم القرّاء منزلةَ هذه الروايةِ من نُفُوس الأدباء فى الغرب ومبلغَ تقديرِهم لمؤلفها .

ولقد تناول السيد مصطفى لطفى المنفلوطى هذه المأساةَ ونَقل موضوعَها إلى اللغةِ العربيةِ فى قالَبٍ رِوائِيٍّ جميلٍ بعد أن أضافَ إليها أشياءَ وحَذَف منها أُخرى وأخرجَها لقرائه قصةً يستهوى أسلوبُها القلوبَ وتسترعى وقائعُها الألبابَ بقلمٍ عذْبٍ وعبارةٍ

رقيقة وديباجة بديعة لا نطيل الكلام فى وصفها لأنّ قرّاء العربية جميعاً يعرفونها لهذا الكاتبِ العظيم ويعترفون له بها ، ولم يفُتْهُ أن ينقُلَ إلى العربيةِ قِطعاً كاملةً من الرواية يستطيع القارئُ أن يتبيَّنَ منها قوّةَ المؤلف ، ومع أنّ الروايةَ ملخصةٌ تلخيصاً فقد استطاع الكاتبُ بمهارةٍ فائقةٍ أن يصوِّر الرُّوحَ الأصليةَ للمؤلف تصويراً مؤثراً وأن يملكَ من نفوسِ قرّاء العربيةِ ما ملكه فرانسوا كوبيه من نفوس قرّاء الفرنسيّة .

ولا يفوتنا هُنا أن نقول إنَّ الكاتبَ قد اشتغلَ بتلخيص هذه الرواية فى إبّان الحركةِ الوطنية الأخيرة ، ولقد أوحتْ إليه الحوادثُ السياسية التى لا تزال ماثلةً فى الأذهانِ صفحاتٍ تفيضُ وطنية وغَيرةً حتى لَكأنه قد أفضى إلى أُمّته فى هذا الكتاب بكثير مما لا يستطيع كتابتَه فى الصُّحفِ السياسية ، والحقَّ أقولُ إننا كثيراً ما كنا نعْتِبُ عليه فى سكوته عن الاشتراك بقلمه مع العاملين فى هذه الحركةِ حتى قرأْنا هذه الرواية فإذا رُوحُه الوطنيةُ الشريفة تَسيلُ فوقَ صفحاتها سيلا وإذا الروايةُ رواية الحركةِ الحاضرةِ بجميع ظُروفِها ومتعلّقاتِها .

وبالجملة فروايةُ « فى سبيل التاج » كتاب الوطنيةِ الخالدة فى ثوبِ قصةٍ خيالية تملكُ لُبَّ القارئِ بجمالها وتتولَّى تهذيبَ نفسه بآدابها وفضائلها ، وما أَحْوَجَنا أن تَجْرىَ الأقلامُ الأدبيةُ فى هذا

العصرِ بمثلِ ماجرى به قلمُ السيد المنفلوطى فى هـذه المأساةِ المؤثرة ليتلقّى النشْءُ الحديث دروسَ وطنيتِه من طريق العواطف والوجدان ، وقلما تصلُ الوطنية إلى أعماقِ القلوب وتتغلغلُ فى شَغافِها إلا من هذا الطريق ؟

أول يونية سنة ١٩٢٠ حسن الشريف

مقدمة

لا يزال التاريخُ يحفظ فى صفحاتِه حتى اليوم تلك الوقائعَ الحربية الهائلة التى وقعتْ فى القرنِ الرابعَ عَشَرَ بين الدولةِ العثمانيةِ والشعوبِ البلقانيةِ أيامَ أغارت الأولى على الثانية تُريدُ افتتاحَها والاستيلاءَ عليها فدافعت الثانية عن نفسها دفاعا مجيداً استمرّ زمنا طويلا حتى غُلبت على أمرِها فسقطتْ فى يد القوة القاهرة ودخل التركُ البلقان وحوّلوا كنائسها إلى مساجدَ وفرضوا على أهلها الإتاواتِ الثقيلة (١) وعزلوا مَلِكها الذى كان يحاربُهم ويُناوئهم ومَلَّكوا عليها ملِكا من أهلها اسمُه « ميلوش » فلبثتْ فى حكم الأتراك عهداً طويلا عانت فيه من ضُروب الذلّ والهوان مايعانيه كلُّ شعبٍ مغلوب على أمره ، حتى قَيَّضَ الله لها رجلا من رجالِ الدينِ المخلصين اسمه الأسْقُفُّ « أتين » عز عليه ضَياعُ بلادِه وسُقوطُها فى يد أعدائها وأن تتحولَ فيها الكنائسُ إلى مساجدَ وتَجْأَرَ فى أرجائها أصواتُ المؤذنين بدلا من أصوات النواقيس وألا يجدَ المَسيحيون فى عُقرِ ديارِهم مكاناً يؤدُّون فيه فروضَ صلواتهم غيرَ الصّحارى والفَلَوات ،

---

(١) الإتاوة : الخراج والجزية ، وتقابل فى الوقت الحاضر ما يفرضه الغالب على المغلوب من غرامات حربية .

فأخذ يتنقل فى أرجاء البلاد ويمشى بين شعوبها وقبائلها يدعو باسم الدين مرةً والوطنيةِ أُخرى ، ويستنهضُ هِممَ الرجالِ للدفاعِ عن وطنِهم وتحريرِ بلادِهم من يدِ ذلك القاهر المغتصِب حتى جَمَعَ كلمةَ الأمة كلها من حولِه على اختلاف عناصرِها ومذاهبِها . وكذلك تتفقُ كلمة الأمة أمامَ الخطرِ الداهمِ والقضاء الشامل .

ثم أشار على مَلِكِه أن يَخلعَ طاعةَ الترك ويطرُدَ رعاياهم من بلادِهِ ويمتنعَ عن دفع الجِزْيةِ والإتاوة ويُنادىَ بحريةِ البلقان واستقلالِه ، فَجَبُنَ الملكُ عن ذلك فى أوّلِ الأمر ثم أَسْلَسَ له وأَذْعَنَ لرأيه ، ففعل ما أشار به عليه ؛ فأَحْقَدَ ذلك الترکَ وآسَفَهم واستثار حِقدَهم وضغِينَتَهُم ، فوجَّهوا إلى البلاد البلقانيةِ جيشاً عظيما وافرَ العُدَّة والعَدَد بقيادةِ أحدِ أبطالِهم العظام أُرطغرل باشا . فثار البلقانيون جميعاً رجالا ونساء للدفاعِ عن أنفُسِهم والذَّوْدِ عن وطنهم ، واختاروا لقيادةِ جيشِهم القائدَ البلغاريَّ العظيمَ الأميرَ ميشيل برانكومير ، فظل يحاربُ الأتراكَ عِدَّةَ أعوامٍ يُدَالُ له عليهم فيها ويُدَالُ لهم عليه (١) . ولكنهم لا يستطيعون اجتيازَ حدودِ بلادِه واقتحامَ جبالها ، حتى عَنَّ القائدُ التركىُّ بأمرِه ورأى أن لا حيلةَ له فيه إلا من طريقِ الدسيسةِ والكيد ، وكذلك فعَل . . .

---

(١) يتداولون النصر والهزيمة .

الجاسوس

اجتمعَ جُنودُ الفرقةِ البلقانيةِ ذاتَ ليلةٍ فى مُعسكرِهم يشربون ويطربون ويرقصون على نغَم قِيثارِ الموسيقارِ البُوهيمى المِسكين « بانكو » الذى كان يَفِد إلى مُعسكرهم كلَّ ليلةٍ يُغنيهم قِطعاً حماسية مُؤثرةً يُذَكرُهم فيها بمجدِ وطنِهم وتاريخِه العظيمِ ، فيرقصون على غِنائه ويُطرَبُون ويُحسنون إليه بما فَضَل من زادِهم وشرابهم ، ثم جلسوا بعدَ فراغِهم يتحدثون فى شأنِ ذلك الحادثِ العظيم الذى حدث فى بلادهم منذ أيام ، وهو موتُ الملك ميلوش وعَزْمُ الجمعيةِ الوطنيةِ على الاجتماعِ للنظرِ فيمن يخلفه على العرش من بعدِه ، فانقسموا فى رأيهم قسمين : فريق يرى اختيارَ الأسقفِ أتين ، وفريق يرى اختيار القائد برانكومير ؛ فقال الجندىُّ الرومانىُّ « أورش » وهو من أشياع الأسقف وأنصارِه : « نعم إن النصرَ قد تم لنا على يد قائدنا العظيم ميشيل برانكومير ، ولكنْ من الذى مهَّد له النصرَ وأعدّ له عُدّته قبل أن يُعْقَد له اللواءُ على الجيش ؟ أليس الأسقفُ أتين ؟

مَن الذى يُنكرُ أن ذلك الرجلَ التقىَّ الصالح هو الذى طاف البلادَ من أقصاها إلى أقصاها عشرةَ أعوامٍ كاملة يستنهضُ الهِمم

ويستثيرُ حفائظَ (١) النفوسِ ، ويستحيي ميت العزائمِ ، ويَهِيجُ عاطفة الثأرِ والانتقامِ فى نفوسِ الرجال والنساءِ والفِتْيانِ والفَتَيات ، ويُلقِى على تلاميذِ المدارسِ فى مدارسِهم أناشيدَ الحريةِ والوطنية فيستظهرونها مع دُروسهم ويتغنَّوْنَ بها فى مسارِحهم وملاعبهم ومغداهُم ومَرَاحِهم (٢) ؟

من الذى يُنكِرُ أنه هو الذى علَّم الشعبَ البلقانىَّ دروسَ الوطنيةِ الشريفة العالية ، وغَرَس فى قلوبِهم أن الحياةَ الذليلة خيرٌ منها الموتُ الزؤام ، وأن الحرية حياةُ الأمم ورُوحُها ، والرِّقَّ موتها وفَناؤها ، وأن الأمةَ التى تَرضَى بِضَياع حريتِها واستقلالِها وتَقبل أن تضعَ يدَها فى يد غاصبِها إنما هى أحطُّ الأممِ وأدناها وأحقُّها بالزوال والفناء ؟

ولم يزل يُفيضُ على نفوسِهم من نفسِه تلك الروحَ الوطنيةَ العالية ، ويُملِى عليهم أمثالَ هذه الآياتِ الذهبية الشريفة ، حتى صَفَت ضمائرُهم من أدرانِ الذلِّ والْمَهانة ، وأدركوا من معنى الحياةِ مالم يكن يُدركه آباؤهم من قَبل ، فأصبحوا كما تراهم اليومَ حُماةَ الوطن وذادَتَه (٣) ، يبذلون فى سبيلِه من ذاتِ أيديهم وذاتِ نفوسِهم ما لا يَبْذلُ مثلَه

---

(١) الحفائظ : الأحقاد ، واحدها : حفيظة .

(٢) مغداهم ومراحهم : غدوهم ورواحهم ، صباحاً ومساء .

(٣) الذادة : جمع ذائد ؛ ذاد يذود : دافع يدافع .

إلا الأممُ الراقيةُ الشريفة فى سبيل الذودِ عن مجدها والدفاعِ عن حُريتها واستقلالها ، ويتقدمون إلى الموتِ زَرَافات ووُحْداناً (١) فرحين متهلّلين كأنهم ذاهبون إلى مراقصِ « فيدين » وملاعبها ؛ لأنهم يعلمون أن قطراتِ الدماء التى يبذلونها فى سبيلِ حريتهم واستقلالِهم إنما هى المِدادُ الأحمرُ الذى تُسَجَّلُ لهم به فى صفحاتِ تاريخِهم آياتُ المجدِ والفخار . وأن الأشلاءَ (٢) التى ينثرونها فى تُربة وطنِهم ثم يسقونَها من دمائهم إنما هى البذورُ الطيبة التى تُنبِتُ لبلادِهم المستقبلَ الحرَّ الشريف .

مَن منا يجهلُ أنه هو الذى استطاعَ وحدَه من بين أبناء البلقان جميعاً أن يقفَ أمامَ مليكِه وقفةَ الأسدِ الهَصُور ويَصيحَ فى وجهِه قائلا له : حتى متى أيها الملكُ الضعيفُ المَهِينُ تَبيع وطنَك وأبناءَه لأعدائك وأعدائِه بيعَ السِّلَع المعروضةِ فى حوانيتِ التجار بأبخسِ الأثمان وأدناها ؟ وإلامَ تَضَعُ هذه السلاسلَ والأغلالَ فى أعناقِ أبناء أمتِك لتقودَهم بها إلى حيث يُمَرِّغونَ جباهَهم الشريفةَ تحت مواطئ أقدامِ ذلك العدوِّ المغتصِبِ صاغرين ضارعين ، ثم تزعمُ بعد ذلك أنك ملكٌ عظيمٌ جالسٌ على عرشٍ شريف ، ولو حقَّقْتَ أمرَك لعلمتَ أنك نَخَّاسٌ دنىءٌ يبيعُ الرَّقيقَ فى سوقِ النِّخاسة (٣) ، بل أَدْنَى

---

(١) زرافات ووحدانا : جماعات وآحادا .

(٢) الأشلاء : الأعضاء ، مفردها : شلو .

(٣) النخاس : تاجر الرقيق ، والنخاسة حرفته .

من نَخّاس ، لأن النخاسَ لا يَتَّجِرُ فى أبناءِ أُمّتـه ولا فى أفرادِ أُسرته !
فاهتزَّ الملكُ لكلمتـهِ هـذه اهتزازَ القَصَبَةِ الجوْفاءِ بين مَهابِّ الرِّياح ،
وطأطأَ لهـا رأسَهُ إجلالا وإعظاما ، ولم يلبثْ أن عزمَ عَزْمَتَهُ الشريفةَ
التى تَرَوْنهـا اليوم والتى أنقذت الوطنَ من العار ورفعَتْهُ إلى ذِرْوَةِ
المجدِ والفَخَارِ . »

وهُنا ضَجَّ القوم جميعاً ضجـةَ السرورِ والاستحسانِ وصاحوا :
أحسنتَ يا أورش ، أحسنتَ إحسانا عظيما . إلا نَفَرا قليلا من أشياعِ
القائد وصنائعِه ، فإنهم امْتَعَضُوا لهذه الكلمةِ وغَصُّوا بها (١) ، وقام أحدُهم
واسمُه لازار ، وكان الحارسَ الخاصَّ لقصرِ القائد وأمينَه وموضعَ ثِقتِه
وثقةِ زوجته الأميرةِ بازيليد وطَلَبَ الإذنَ فى الكلامِ فأذنوا له ، فقال
« إنى لا أُريدُ أن أعترضَ على صديقِ أورش فى كلمته التى قالهـا فى فضل
أُسْقُفِّنا العظيم وأثره الجليلِ فى خِدمةِ الدين والوطن ، ولـكنّ الذى أراه
وأَسْتَصْوِبُهُ أن لرجال الدينِ شؤونا خاصةً بهـم لا يَجْمُلُ بكرامتهـم أن
يتعدَّوها إلى غيرها من أعمـالِ الحياة ، وإنى أَضِنُّ بأُسْقفنا العظيم أن
تَشْغَلَهُ مشاغلُ المُلْكِ ومَلَاهيـه عن شؤون الدينِ التى تَصْبُو لهـا نفسه
طُولَ حياته ، والرأىُ الذى أراه أن يَعْهَدَ الملكُ إلى القائدِ ميشيل برانكومير
ليقودَ الأمّةَ جميعها بتلك السياسةِ الحكيمةِ الرشيدةِ التى قاد بهـا الجيشَ

---

(١) غصوا بها : أخذتهم الغصة ، كما يشرق الشارب بالمـاء أو الآكل ببعض الطعام .

ورفعه إلى مَنَاطِ السَّماكِ الأعلى . » فاعترضه جندى كان جالساً على مَقرَبَةٍ منه وقال له « ولم لا تَضِنُّ بالقائد ميشيل أن تَشْغَلَهُ مشاغلُ المُلْكِ وملاهيه عما هو بسبيلهِ من قيادةِ الجيش وتدبير شؤونه ؟ » فأجاب : إنّ قيادة الجيشِ وزعامةَ الملْكِ أمران متشابهان ، لأنهما يتعلّقان بشؤون الحياة وأعمالها : أما الشؤونُ الدينية فلا علاقةَ لها بالشؤون الدُّنْيويةِ بحالٍ من الأحوال ؛ فدَعُوا الكاهنَ مُستريحاً فى معبدِه ، مستغرقاً فى صَلَواته وعباداته ، واخْتَاروا لمُلْكِكم رجُلَ الأمةِ وبطلَها وحامِيَ ذِمارِها وحِمَاها الأميرَ برانكومير . » فعلتْ أصواتُ الصاخبين والصائحين ، والمستحسنين والمستهجنين ، وذهب كل فى صيحتهِ المذهبَ الذى يراه ويتشيَّعُ له .

وإنهم لكذلك إذا بصوتٍ صارخٍ فى وسطِ هذه الضوضاءِ يقول : « استمعوا منى أيها القومُ كلمةً واحدةً هى فَصْلُ الخِطاب فى قضيتكم هذه ، ولا أطلبُ إليكم أن تستمعوا منى سواها ، » فالتفت الجمعُ فإذا الضابطُ « ألبير » وهو جُندىٌ شيخٌ عَرَفَ القائدَ برانكومير صغيراً وخدَمَه كبيراً وعاش معه فى منزلهِ فى عهد زوجتهِ الأولى كأنه أحدُ أفرادِ أسرته ، ولم يُفارقْه إلا منذُ عامين اثنين : أىْ بعدَ وفاةِ زوجتهِ بأيام قلائل ؛ فأنصتوا إليه فإذا هو يقول : « أنتم تعلمون جميعاً صِلَتى بالقائدِ برانكومير ومكانتى عِنده ، وإنى أعْرفُ من

شؤونه الخاصة والعامة مالا يعرفه أحدٌ غيرى . ولقد عَرَفْتُ فيما عرفتُ من خلائقه وسجاياه بعد تجربةِ عشرين عاما قضيتُها فى خدمته ، أنه أبعدُ الناسِ جميعاً عن مطامع الحياة ومظاهرِها وأَرْغَبُهم عن سفاسفِ الامورِ ودناياها ، وأنه جنديٌّ صميم معتزٌّ بجنديته وشَظَفِها وخُشونةِ العيش فيها ، لا يُؤْثِر عليها أىَّ مظهرٍ من مظاهرِ الحياة مهما علا شأنُهُ وغَلَتْ قيمتُه ؛ فمن ظنَّ منكم أنه يُرضيه ويُجامِلُه بترشيحه لمنصبِ الملكِ فقد أخطأ فى ظنِّه خطأً عظيما ، وإن كان للأُسْقُفِّ « أتينَ » مُزاحمٌ على المُلْكِ بين أشرافِ البلقانِ وسادتِه فهو غيرُ القائد برانكومير . » فهدأتْ الأصواتُ وسكنت الضوضاءُ عند سَماعِ هذه الكلمةِ الهادئةِ الرزينة التى ينطق بها جُنديٌّ شريفٌ صادق ، وكادت تكونُ فصلَ الخطابِ فى القضية ، لولا أن « أورش » ـ وهو ذلك الجنديُّ المتشيّعُ للأسْقُفِّ والداعى له ـ قد نَهَضَ من مكانه مرةً أخرى ونظر إلى الجنديِّ « ألبيرَ » مبتسما ابتسامة الهُزْءِ والسخرية ، وقال له : « نعم يا سيّدى إنك صادقٌ فيما تقول ، لم تَزِدْ حرفا على ما تعرفُ ولم تنقصْ ، ولكنِ ائْذَنْ لى أن أقولَ لك إنك إنما تُحدِّثُ فى كلامِك عن الماضى القديمِ الذى حضرْتَه وشاهَدْتَه ، أما الحاضرُ فلا تعرفُ منه شيئاً ، فإن أذِنْتَ لى حدّثْتُك عنه وقلتُ لك : إنّ الأميرَ برانكوميرَ اليومَ غيرُهُ بالامس ، وإنّ تلك النفسَ العاليةَ المترفعةَ التى كنتَ تعرفُ بالأمسِ مكانَها من بين

جنبيه قد استحالت اليومَ إلى نفس توّاقة متطلعةٍ تَصْبو إلى المعالى وتَفْتَتِنُ بالعُروش ، وإنه هو الذى يدعو بنفسه إلى نفسه ويُرسل الدُّعاةَ فى كل مكانٍ لتأييده ومساعَدَتِه على نَيلِ الملك . » فاسْتُطِيرَ ألبيرُ غَضَباً وقال : « أتُرِيدُ أن تقولَ إنّ أخلاقَ قائدِنا قد تغيرت وإنه قد أصبح رجلًا صغيرَ النفس مُتَبَذِّلًا ؟ قال : « لا ، ما إلى هـذا ذهبْتُ ، ولكنى أريد أن أقول : إنه قد أصبح مُنْقَاداً فى شؤونِ حياتِه لرأيِ غيره لا لرأى نفسه ، ورُبما لو تُرِكَ وشأنَهُ لكانت له فى حياته خُطة غيرُ هذه الخُطةِ التى ينْتَهِجُها اليوم . » فانتفضَ القومُ واضطربوا ونَظَرَ بعضهم فى وجوهِ بعض ومَشَت الهمساتُ بين الأفواه والآذان ، وسمع الخطيبُ اسمَ قُسطنطينَ يتردّدُ مراراً فى أفواه الهامسين ، فصاح فى القوم : «أنتم مخطئون جميعاً فيما تذهبون إليه . فإنّ ابن قائدِنا وزهرةَ شبيبتنا وضابطَ فرقتِنا أعلى همة مما تظنّون . » فصرخ لازار : « قُل من هو الشخصُ الذى تريد ؟ » فجلس أورشُ ولم يقل شيئاً ، إلا أنه همَسَ فى أذن جُندى كان بجانبه : « الزوجة الجديدة » ! فسَرَتْ هـذه الكلمةُ بين الجُموعِ سَرَيان الكهرباء فى أسلاكِها حتى بلغتْ مِسْمعَ الموسيقارِ بانكو ، فَبَرقتْ لها عيناه بريقَ الفرَحِ والسرور ، لأنه لم يكن موسيقاراً بُوهيميا كما زعَم ، ولم يكن اسْمُه بانكو كما يُسمُّونه ، بل هو الضابطُ المشهورُ إبراهيمُ بك أحدُ أركان حرب القائد التركى العظيم أرطُغرل باشا ، وقد وجد

فى هذه الكلمة التى سمعها ما كان يريدُ أن يكون ، وعثرَ بالثُّلمةِ (١) التى ينحدرُ منها إلى أغراضِه ومآربِه .

وما أوَى القومُ إلى مضاجعِهم وأخذ النومُ بمعاقدِ أجفانِهم حتى دَبَّ ذلك الجاسوسُ المتنكِّرُ على يديه حتى بلغ مضجع الجندىّ لازارَ حارسِ قصرِ القائد وموضعِ ثقتِه وأكبرِ أشياعِ زوجتِه وأنصارِها ، فاضطجعَ بجانبِه وظلَّ يهمِسُ فى أُذُنِه ساعة طويلة كان يتردّدُ فيها اسمُ الأميرةِ بازيليد زوجةِ القائد الجديدة ، حتى تمّ لهما الاتفاقُ على ما يُريدان ، ثم أسلَمَا عيونَهما إلى الكرَى فناما .

قسطنطين

تُوُفِّيتْ زوجةُ الأمير برانكومير منذ عامين ، وكانت امرأةً من النساء الصالحاتِ القانتات ذواتِ النفوسِ العاليةِ والهممِ الكبرى ؛ فورِثَ ابنُها قسطنطين عنها هذه الأخلاقَ الكريمة ، كما ورِثَ عن أبيه صفاتِ الشجاعةِ والعزيمةِ والصبرِ واحتمالِ المكارهِ فى سبيلِ خدمة الوطنِ والأمة ، فكان خَيْرَ ابن لخيرِ أبٍ وأُمّ ، وكان يدَ أبيه اليُمنى ودِرْعَه الواقيةَ الأمينةَ فى جميع وقائعِه ومشاهِدِه ، حتى ذاعَ صِيتُه فى جميع أنحاء المملكة وأحَبَّهُ الشعبُ والجندُ حُبا كاد يرفعُه إلى مافوق منزلةِ أبيه ، لولا حرمةُ الأُبوّة وجلالُ الشيخوخةِ

---

(١) الثلمة : الثقب ، والمدخل فى جدار الحصن .

ومكانُ التاريخ . فلما ماتت أُمه تزوّج أبوه من بعدِها فتاة يونانية اسمُها بازيليد ، يقالُ إنها من سُلالةِ قياصرةِ بِيزَنْطِيَّة « القُسطنطينية » وهى فتاةٌ جميلةٌ ساحرةٌ تستهوِى القلوبَ وتَخْتَلِبُ الألباب ، ذاتُ نظراتٍ غريبةٍ لامعةٍ يقضى المتفرّسُ فيها حين يراها أنها نظرات مُرِيبةٌ أَلِفَت الاختلابَ والافتتانَ من عهدٍ بعيد : فنزلتْ من قلب القائدِ الشيخِ منزلةً لم ينزلْها منه أحد من قبلِها ولا من بعدِها ، حتى زوجتُه الصالحةُ وولدُه النجيب ؛ فأصبحَ مستهاماً بها ، مستسلِماً إليها ، لايَصْدَعُ إلا بأمرِها ، ولا يَصْدُرُ إلا عن رأيِها ، ولا يرى حُلْوَ العيشِ وجمالَه إلا بجانبِها ، ولا يَسْتَرْوِحُ رائحةَ السعادةِ والهناء إلا إذا هَبَّتْ عليه من ناحيتِها ؛ وكانت امرأةً طَمُوحاً متطلّعةً لايَعْنِيها من شؤون حياتها إلا مظاهرُ السُّؤْدُدِ والعظمة ، ولا يَغْلِبُ على مشاعرِها وعواطفِها إلا ذِكرى تاريخِ آبائها وأجدادِها ومصارعِ قومِها فى « بِيزنطيةَ » بِيَدِ الأتراكِ الفاتحين ؛ وكانت لاتزالُ تتحدّثُ فى مجالسها العامّةِ والخاصة بنُبُوءةٍ قديمةٍ تَنَبَّأَ لها بها بعضُ المتنبّئين ، ومُجْمَلُها أنّ كاهناً عَرَّافاً دخل منزلَ أبيها وهى طفلةٌ لعوبٌ لاتزالُ تَحُومُ حَوْلَ مَهْدِها ، فنظر إليها طويلا ثم قال لأمّها : إن ابنتَكِ هذه ستكونُ مَلِكَةً عظيمةَ الشأن فى مستقبَل أيامِها . وربّما كان اهتمامُها بهذه النُّبُوءةِ واحتفالُها بها وتصديقُها إياها هو السبب فى قَبُولها الزواجَ من شيخ هَرِم مُدْبِر قَلَّما يُعْنَى بِمِثْلِه مِثْلُها ، على

أَمَل أن تُحقِّق لها الأيامُ على يديه آمالها وأمانيَّها .

فظلَّتْ تَغْرِسُ فى نفسِه هذه الْأُمْنِيَّةَ الجميلةَ المحبوبة مُدَّة من الزمان ، وتسقيها بماء حُسنها وجمالها ، حتى ملأتْ بها فضاء قلبه ، وشغلته بها عن كلِّ شاغلٍ سواها .

ولم يزل هذا شأنها معه حتى مات الملكُ ميلوش ، وجاءت الساعةُ التى تنتظرُها ، فهتَفَتْ به : ها قد حانت الفرصةُ التى كنا نرقُبُها ، وها قد بدأتْ تتحقَّقُ نُبوءةُ ذلك العرَّافِ الخبيرِ التى تَنبأ لى بها ، وما هو بالكاذب ولا الْمُتَخَرِّص ؛ ثم زَجَّت به فى طريق مُزَاحَمةِ الأسْقُفّ أتينَ على المُلك ؛ فانقادَ لها ومشى فى الطريق التى رسمتْها له ، وأخذ يدعو الناسَ لنفسه ، ويستكثرُ من سَوَادِ أشياعِه وأنصارِه ، ويُدَاخِلُ أعضاء الجمعيةِ الوطنيةِ ويُدَاهنُهم ويتوسلُ إليهم أن يُساعدوه على نَيل أُمنيتِه التى يرجوها ، مُدِلًّا بمكانته من خِدمةِ الأمةِ والوطنِ ، وأياديه فى الذَّوْدِ عنهما ، وبما بَذَل من صحته وشبابه فى مقاتَلةِ الأعداء ومُدافعتِهم تلك السنين الطوالَ حتى اشتعل رأسُه شَيْباً ولَمَسَتْ قدماه رأسَ المُنْحَدَرِ المؤدى إلى القبر .

هذا ماكان يَشْغَلُ القائدَ وزوجتَه فى ذلك التاريخ ، أما ابنُهُ قسطنطينُ فكان بِمَعْزِلٍ عن هذا كُلِّه ؛ فإن وفاةَ أمِّه التى كان يُحبها حبا شديدا تركتْ فى نفسه أثرا من الحزن لا يَبْلَى ، وملأتْ فضاء

حياته هَمًّا ونَكَداً ، وكان يجدُ بعضَ العزاء عن ذلك الهمِّ الذى نزل به فى حَنان أبيه عليه وعِنايتِهِ به ، حتى تزوَّج من تلك المرأة اليونانيةِ وأسلمَ إليها نفسهُ وقلبَه ، ففقَد بِفَقْدِ عَطْفِ أبيه عليهِ وحنان أمّه كل أملٍ له فى الحياة ، وأصبح يشعُرُ فى نفسِه بِذِلةِ اليُتمِ التى يشعرُ بها أولئك المساكينُ المنقطعون الذين لا يجدون بين أيديهم قُلوباً راحِمة ولا أفْئدة عاطفة !

فكان يُخاطرُ بنفسهِ فى المعارك التى يحضُرها مُخاطَرة اليائِس المُسْتَقْتِل ، راجياً أن يُريحهُ الموتُ من هُموم نفسِه وآلامِها ، فزَجَّ بنفسِه ذاتَ يومٍ فى معركةٍ كُبرى استَبْسَل فيها استبسالا عظيما ، واستَقْتَل معه جندُه يطلبون الموتَ حيثُ يطلبهُ ؛ فلم يبلُغْ أمنيتَه التى يتمناها ، ولكنه انتصرَ فى تلك المعركةِ انتصارا باهرا ، وأَنْقَذَ من يدِ الترك شِعْبَ (١) « تراجان » ، وكان الملجأَ العظيمَ لهم ، والمركز الأكبرَ لحركاتِهم وأعمالهم .

وإنه ليتأثرُ الجيشَ المنهزم ويشتد فى أعقابه (٢) ، إذ لمح على البُعدِ فارساً تركيا قابضا بيدِه على شعرِ فتاةٍ مِسكينة ، يُريدُ اقتِسارها وإكراهَها على الرُّكوب معه وهى تمتنعُ وتتأبى (٣) وتُحاولُ الإفلات من يدِه ، فيضربُها بِسَوْطه ضربا مؤلما وجيعا ؛ فأزعجه

---

(١) الشعب (بكسر الشين) : الطريق فى الجبل ، وما انفرج بين الجبلين .

(٢) يتأثر : يتبع الأثر . والأعقاب : جمع عقب ، وهو مؤخر القدم والمعنى أنه يتعقب الفارين والمنهزمين .

(٣) تتأبى . تمتنع فى الإباء .

هذا المنظرُ وآلَمَهُ ، فركضَ جَوَادهُ حتى أدركَ ذلك الفارس فضربَه على هامَتِه بسيفِه ضربةً قضتْ عليه ، فركعت الفتاةُ بين يديه ضارعةً تسألُهُ أن يُنقِذَها من شقائها ويقودَها معه إلى حيث يشاء ، فَرَثى لحالها وأحزنه منظرُها دون أن يعلمَ من أمرها شيئا ، فأَرْدَفَها خلْفه (١) وركَضَ بها حتى بلغَ موضعَ الخِيام ، فتركها بين الأَسْرَى وعاد من تلك الموقعةِ ظافراً منصورا ، يُهنِّئُهُ الشَّعبُ ويهتفُ له فى كل مكانٍ يمرُّ به ، حتى وصل إلى القلعةِ الكبرى ، فدخل على أبيه وألقى بين يديه الأعلامَ التى غَنِمَها فى المعركة ، فأمرَ برانكومير بقتلِ الأسْرَى ، وكان ذلك شأنه فيهم كُلَّما قُدِّمُوا إليه ، حتى جاء دَوْرُ الفتاة ، فَجَثَتْ بين يديه ومدّت إليه يدَها مُستغيثةً تطلبُ العفو وتقول له : إنها فتاةٌ نَوريةٌ (٢) مِسكينةٌ لا شأنَ لها فى الحربِ ولا علاقةَ لها بأهله ، وإن أمَّها باعتْها منذ عامين من جُندىٍّ تُركىٍّ أساء عِشرتَها وعَذَّبها عذاباً أليما حتى قَيَّضَ اللهُ لها هذا الفتى الكريمَ فاستَنقَذها من يدِه . وأشارتْ إلى قُسطنطين .

فركع قسطنطينُ بجانبها وسأل أباه العفوَ عنها وقال له : إننى قد أنقذتُ حياتَها بالأمس فأَنقِذْ أنت حياتها اليومَ واجعلْها حِصتِي

---

(١) أردفها : أركبها وراءه ، على ردف فرسه .

(٢) النور : جنس من الناس كثير التنقل يعيش عيش البدو ويمتهن المهن الدنيا ويعيش كثير منه فى وسط أوربا ، ومنه الطائفة التى تسمى فى مصر « الغجر » .

الوحيدةَ من الغنيمة ، وأُعِدُك أنى لا أطلبُ غَنِيمةً سواها ، فأَحْفَظَ ذلك قَلْبَ الأميرةِ بازيليدَ زوجِ أبيه (١) ، وكانت حاضِرةً تسمعُ حديثَه ، فنظرتْ إليه نظرةَ الازْدِراءِ والاحتقار ـ وكان هذا شأنها معه كلما التقتْ به ـ وأنشأتْ تَنْعَى عليه اهتمامَه بشأن فتاةٍ نَورية راقصةٍ طريدةِ غاباتٍ وفلوَات ، وربيبةِ حاناتٍ ومُعَسْكرات ، وقالت له : لقد كان جديراً بك وأنت ذلك الجنديُّ الشريفُ سليلُ ذلك القائدِ العظيمِ والأميرِ الجليلِ أن تُلْقِيَ بمثلِها إلى حارسٍ من حُرَّاسِ بابِك أو جنديٍّ من جنودِك يتَلَهَّى بها كما يتلهَّى الكلبُ بالعظْمةِ المطروحةِ تحت أرجُله ، بدلًا من أن تصِل حياتَكَ الشريفةَ الطاهرةَ بحياتِها الدنيئة الساقطة !

فثارت ثورةُ الغضبِ فى نفسِه وأَضْغَنه (٢) عليها هذا الرِّياءُ الكاذبُ والشرفُ المتكلَّف ، وكان يعلمُ من شؤون نفسِها وخبايا قلبِها ما لا تَظُنُّ أنه يعْرِفُ شيئاً منه ، فنظر إليها نظرةً شَزْراءَ مُلْتهبة ، وقال لها وهو يعلمُ أن ما سيقولُه سَيُغْضِبُها ويُؤلِمُها ويملأ صدرها غُصَّةً وحَنَقا : إنّ اللهَ لم يَخْلُق الضعفاءَ والمساكينَ ليكونوا تُراباً لنا تدوسُه أقدامُنا ونَطَؤُه نِعالنا كلما وجدْنا إلى ذلك سبيلا ، ولم يَمْنَحْنا القوةَ والعِزَّةَ لنتخذ منهما أسواطَ عذاب نُمزِّقُ بها أجسامَهم ،

---

(١) أحفظ قلبها : ملأه حفيظة .

(٢) الضغن : الحقد .

ونستنزف بها دماءهم . وكل ذنوبهم عندنا أنهم أذِلّاء مستضعَفون لا يملكون من القوةِ والعزةِ مثلَ ما نملكُ ولا يَذُودون عن أنفسهم بمثلِ ماندود .

وأَحْسِبُ أنهم لو كانوا أقوياء أو أعِزّاء مِثْلَنا : أو أعَزَّ وأقوى منا ، لَخِفْناهم واتَّقَيْنا جانبَهم ونظرنا إليهم بعينٍ غير العين التى ننظرُ بها إليهم اليوم ، لأنّ القويَّ الذى يَتَنَمَّرُ (١) على الضعفاء لابُدَّ أن يكونَ جَباناً ذليلًا أمام الأقوياء .

إننا الآنَ فى حربٍ مع عدوٍ قاهرٍ جبّارٍ نَنْقِمُ منه جَوْرَهُ (٢) وظلْمَه واستضعافَه إيانا واستِطالَتَهُ علينا بقُوَّتِه وكثرتِه ؛ فجديرٌ بنا ألا نفعلَ ما نَنْقِمُهُ منه ونأْخُذُهُ بِه ؛ عسى أن يرحَمَنا اللهُ وينظرَ إلينا بعينِ عدلِه وإحسانه ، وينتصفَ لِضَعْفِنا من قوتِه ، وقِلَّتِنا من كَثْرَتِه !

إنّا لانحملُ هذه السيوفَ على عواتِقِنا (٣) لنقتلَ بها النساء والأطفالَ والضعفاء والعُزَّلَ الذين لاسلاحَ لهم ولا قُوَّةَ فى أيديهم ، بل لِنُقارعَ بها الأبطالَ والأكفاءَ فى ميادينِ الحُروب ومواقف النزال .

إنى لا أَعْرِفُ شَرَفا غيرَ شَرَف النفس ، ولا نسباً غيرَ نسب الفضيلة ،

---

(١) يتنمر : يصطنع طباع النمر .
(٢) ننقم : نكره .
(٣) العاتق : الكتف .

وإنّ هذه البائسةَ المسكينةَ التى تحتقرونها وتَزْدَرُونَها لم تَصْنَعْ ذَنْبَها بِيَدِها ، ولا سَعَتْ إليه بِقَدَمها ، بل هكذا قُدِّرَ لها أن تَنْبُتَ فى هذا المَنْبِتِ القَذِرِ الوَبِيءِ ، فَوَبِئَتْ وقَذِرَتْ ؛ وليس فى استطاعتِها أن تعودَ إلى العدمِ مرَّةً أُخرى لتَخْلُقَ نفسَها خَلْقاً جديداً فى جوٍّ غيرِ هذا الجوِّ وتُرْبةٍ غير هذه التُّربة ، فما هو ذنبُها وما هى جريمتُها ، وأىُّ حيلةٍ لها فى هذا المصير الذى ساقها القدرُ إليه ؟

إنما الإثمُ على الذين يقترفون الذُّنوبَ وهم يعلَمونَ مكانَها من الرَّذيلةِ ومكانَ أنفسِهم من اقترافها ، ويُحَوِّلون زِمامَ حياتهم بأيديهم من طريقِ الخيرِ إلى طريقِ الشرّ ، إيثاراً لها وافتتاناً بها ؛ أولئك هم الآثِمُون المُذْنبون الذين يجدرُ بنا أن نَقْسُوَ عليهم ونَشْتَدَّ فى مؤاخذَتِهم ، أما الضعفاءُ والمساكينُ الذين لاحولَ لهم فى شأنِ أنفُسِهم ولا حيلةَ ، فهم بِرَحْمَتِنا وعَطْفِنا أحقُّ منهم بِعَتْبِنا ولَوْمِنا ، فإنْ وجدْنا السبيلَ إلى معاونَتِهم ومساعَدتهم واستنقاذِهم من وَهْدَةِ الشقاءِ التى هَوَوْا فيها فذَاك ، أَوْ لا فَلْنَدَعْهُمْ وشأنَهُم تذهبُ بهم المقاديرُ حيث شاءتْ من مذاهبِها ، ولا نَزِدْهُم بكبريائنا واستطالَتِنا بؤساً على بؤسِهم ، وشقاءً على شقائهم .

إننا ما أُصِبْنا بما أُصِبْنا به من هذه النكبةِ الشعواءِ والداهيةِ الدَّهْياءِ التى نزلتْ بنا منذ عشرةِ أعوامٍ ما تُفارقنا ولا تَهْدَأُ عَنَّا ،

إلا من ناحية كبريائنا وخُيلائنا واعتدادِنا بأنفُسِنا فى جميع شؤونِنا وأعمالنا ، واحتقارِ غَنِيِّنا لفقيرنا ، وقويِّنا لضعيفِنا ، وسيِّدِنا لِمَسُودِنا ، فسلَّطَ اللهُ علينا ذلك العدوَّ القاهر الذى لا يَعتمدُ فى جميع شؤونه ومواقعِه إلا على قوّتِه وأَيْدِه (١) ، لأننا لم نعتمدْ فى يومٍ من أيامِ حياتنا فى جميع صِلاتِنا وعلائقِنا إلا على قُوَّتِنا وأَيْدِنا ، والجزاءُ من جِنسِ العمل ، « وما ظَلَمَهُمُ اللهُ ولكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

فاصفرَّ وجه بازيليدَ وآرْبَدَّتْ شفتاها ، وكأنما خُيِّلَ إليها أنَّهُ يَلْمِزُها ويُرِيبُها (٢) ويُشيرُ فى حديثِه إلى ماضيها القديمِ وحوادثِ صِباها السالِفة ، فَصَمَتَتْ ولم تَقُلْ شيئا ، إلا أنها انْتَحَتْ ناحيةً وأخذتْ تَبْكِى وتَنْتَحِب ـ والدُّموعُ هى السلاحُ الوحيدُ الذى تعتمدُ عليه المرأة فى جميعِ شؤونِها وعلائقِها ـ فَعَظُمَ الأمرُ على برانكوميرَ وأَكْبَرَ (٣) أنْ يُخاطِبَ ولدُه زَوجتَه المحبوبةَ هذا الخطابَ الجافىَ الغليظ ؛ فأَنْحى عليهِ باللائمةِ الشديدةِ وقال له : إنك لم تُسِئْ إلى نفسِك فى تَنَزُّلِك إلى حماية هذه الدَّنِيَّةِ الساقطة واهتمامك بشأنِها ، بِقَدْرِ ما أَسَأْتَ إلى أبيكَ فى مجابَهَةِ زوجتِه ومُغايَظَتِها وسوءِ الردّ عليها بهذه اللهجة الشديدةِ القاسية ، ولولا هذه الراياتُ الْحُمْرُ التى

---

(١) الأيد : القوة .

(٢) يلمزها : يشير إلى عيوبها . ويريبها : يضعها موضع الريبة .

(٣) أكبر الأمر : اعتبره كبيراً .

ألقيتَها اليومَ تحت قدمىَّ بِأَهِلَّتها البيضاء لما اغتفرْتُ لك هذه الجريمةَ التى اجترَمْتَها ؛ فاذهب لشأنِك ولا تَعُدْ إلى مِثْلِها .

وكذلك تمّ لِقُسطنطينَ ما كان يريدُه من إنقاذِ تلك الفتاةِ المسكينةِ من يدِ الموتِ بعد ما أنْقَذَها من يدِ الشقاء ، فذهبَ بها إلى الْجَناحِ الذى يسكُنُه من القلعة ، وجلس إليها يحادِثُها فى شأنِها وشأنِ ماضيها ، ويسائلها عن دينِها ومذهبها ووطنها وقومِها ، فلم يَرَ بين يديه إلا فتاةً ساذَجَةً جاهلةً لاتعرِف لها وطناً ولا بِيئةً ولا تدِين بدينٍ من الأديانِ ولا مذهبٍ من المذاهبِ ، ولا تفهمُ من شؤون حياتِها إلا أنها فردٌ مُبْهَمٌ من أفرادِ هذا المجتمعِ المائجِ المضطرب ، تمتدُّ بامتدادِه وتَنْحَسِرُ بانحسارِه ، لاتعرفُ الآمالَ ، ولا تُفكرُ فى المستقبل ، ولا تحفِلُ بالماضى ، ولا يتسعُ عقلها لأكثرَ من الساعةِ التى تعيشُ فيها ، ولا تألمُ إلا كما يتألمُ الأطفال ، ولا تفرحُ إلا كما يفرحُ المجانين ، قد صَفَتْ نفسُها من كلِّ شائبة من شوائب النفوس البشرية ، فلا تحقِدُ ولا تغضبُ ولا تكرهُ ولا تَحْسُدُ ولا تطمَعُ ولا تتطلَّعُ ولا تَشْغَلُ ذِهنَها بترتيبِ الصُّوَرِ والأفكار واستنتاجِ النتائجِ من المقدمات ، فأصبحَ ينظرُ إليها نظرَ الأب الرحيمِ إلى طِفله اللاعبِ بينَ يديه ، وأصبحتْ تجلسُ تحتَ قدميه جِلْسَةَ الكلبِ المخلصِ تحت قدمَى سيِّده ، لاتحدِّثُه حتى يحدثها ، ولا ترفعُ نظرَها إليه حتى يناديَها ، وكان يقولُ فى نفسه كلما نظر إليها وإلى سذاجتِها وطهارتِها وبلاهةِ عَقْلِها وغَفْلَتِه : أهكذا قُضِىَ على الإنسان فى هذه

الحياةِ ألا تَخْلُصَ نفسُه من شوائبِ الرذيلةِ والشرِّ حتى يُسْلَبَ عَقْلَهُ وإدراكَهُ قبلَ ذلك ، وألا يُمْنَح مِقداراً من الصدقِ والشرفِ حتى يُحْرَمَ فى مقابله مقداراً من الفطنةِ والذكاء ؛ فليت شِعْرِى هل عجزَت الطبيعة عن أن تجمعَ للمرء بين هاتين المزيتين : مزيةِ العقلِ الذى يعيشُ به والْخُلُقِ الذى يتحلَّى بحليْتِه ، أو أن لله فى ذلك حِكمةً لا نَعْلَمُها ولا نُدْرِكُ كُنْهَها ؟

وكأنما كان يشعرُ فى نفسه باقتداره على أن يجمع لتلك الفتاةِ المسكينةِ بين هاتين الفضيلتين ، وأن يَصُوغَ من نفسها ذلك المثالَ الغريبَ الذى عجزت يدُ الطبيعةِ عن صِياغَتِه . فبدأ يهتمُّ بشأنها اهتماما عظيما ، ويَتَبَسَّطَ معها فى الحديثِ تبَسُّط النظيرِ مَعَ نظيره ، ذاهباً معها فى كل وادٍ من أَوْدِيَتِه ، مَعْنِيًّا كلَّ العناية بتثقيفها وتعليمها وإنارةِ ما أَظْلَم من بصيرتها ، ولكنْ بأُسلوبٍ غيرِ الأُسلوبِ الذى كان يُعَلِّمُهُ به مُعلِّمُهُ فى المدرسة ، فأَرشدَها إلى وجودِ اللهِ لا من طريقِ البراهينِ الجدَلِيَّةِ والقضايا الكلاميّة ، بل من طريق الآثار والمصنوعاتِ الناطقةِ بجمالِها ولُطفِ تكوينها عن قدرة صانِعِها وإبداع خالقِها ، وأَرشدها إلى الفضيلةِ من طريقِ الفضيلة نفسِها لا من طريقِ الترغيبِ فى الثوابِ والتخويفِ من العقاب ؛ ليكون أدبُها أدب نفس لا أدبَ درس ، ولتمتزج الفضيلةُ بنفسها امتزاجا لا تزعزعه عواطفُ اليأسِ ولا عواملُ الرجاء ؛ فكانت تَعْجَبُ لحديثه ومراميه عجباً شديدا ، وتجدُ فيه من اللذة والغبطة ما لا تَذكرُ أنها شَعَرَتْ بمثلِه فى حياتها فى حديث أى متحدِّثٍ يتحدَّثُ

إليها ، وتَعجبُ أكثرَ من كل شيء لتنزُّلِ مثل هذا الأمير الجليل والسيد الشريف إلى مُجالستها ومُثافنتها [١] والنزول على حُكمِها فيما يُغضبها ويُرضيها ، فقالت له مرةً وهى تُحاوره : إنك تحدّثنى يامولاى كأنك لا تعرِف من أنا . قال : إنى أَعرفُك كما تعرِفين نفسَك ، وأعرفُ أنك أُختى فى الإنسانيةِ وهى الأمُّ الرَّءومُ [٢] التى لايستطيعُ أحدٌ من بَنيها أن يَمُت إليها [٣] بأكثرَ مما يمت به إخوتُه ، وما للأخت ملجأ تلجأ إليه فى شدّتها غيرُ عطفِ أخيها وحنانِه عليها ، قالت : ولكنك تعلم أنى فتاةٌ مذنبة ساقطة . قال : كلُّ الناس مذنبون آثمون ، وإنما تختلف صُوَرُ الذُّنوب وأشكالُها وأساليبُ اقترافِها . قالت : لم أرَ فى حياتى مُذْ نشأتُ حتى اليومِ عفيفاً قطُّ ابتسم فى وجهى ! قال : ذلك لأن الناسَ مُراءون مُخادعون يزعُمون لأنفسهم من الفضائل والمزايا ما تنكره نفوسهم عليهم ، فهم يحتقرون المذنبَ ويَزْدَرونه ، لا لأنهم أطهارٌ أبرياءُ كما يزعمون ، بل ليُوهِموا الناسَ أنهم غيرُ مذنبين ، ولو أنهم تكاشَفُوا وتصارَحُوا وصَدق كل منهم صاحبَهُ الحديثَ عن نفسه لتَتارَكُوا [٤] وتهادَنُوا ، ولَمَا أخذ أحد منهم أَحداً بذنبٍ ولا جَريرة !

وكذلك أصبحتْ ميلتزا العزاء الوحيدَ لقسطنطينَ عن همومه وآلامه ،

---

(١) الثفنة (بكسر الفاء) : الركبة : وثافنه : جالسه ركبة لركبة ، أى مواجهة

(٢) الرءوم : العطوف .

(٣) يمت : يتوسل وينتسب .

(٤) لترك كل منهم صاحبه .

فقد وجد بين جنبيها تلك النفسَ الطاهرة البريئة التى طالما نَشَدَها قبل اليومِ فأَضَلَّها [١] وتَطلَّبها فأعياه طِلاَبُها ؛ ووجد فى صدرِها ذلك القلبَ المُحِبَّ المخلص الذى بكاه ونَدَبَهُ نَدْباً شديداً يوم ماتت أُمُّه ، ويوم تَوَلَّى عنه حنانُ أبيه ؛ وكان يتحدث معها فى كل شىءٍ من شؤونِ الحياةِ دقيقِها وجليلِها ، ويُفْضِى إليها بكل خَبِيئَةٍ من خَبَايا نفسه ، إلا ذلك الهمَّ العظيمَ الذى كان يُعالِجُهُ فى أطواء نفسِه وأعماقِها ، ويُكابِدُ منه ما يُقْلِقُ مضجعَه ويَصِلُ ليله بنَهاره ، وهو استحالةُ حالِ أبيه [٢] ، وانتقاضُ قلبِه عليه ، وانقيادُه ذلك الانقيادَ الأعمى إلى تلك الفتاةِ اليونانيةِ الدخيلةِ التى لا يَعْنيها من شأنِه سوى أن تتخذ من عاتِقِهِ سُلَّماً تصعدُ عليه إلى سماء المجد ، ثم لا تبالى بعد ذلك أن تَدْفعَه بقدمِها بعد بلوغ غايتها فيسقُطَ فى الهُوَّةِ التى قُدر له أن يَهْوِىَ فيها : إلا أن ميلتزا الذكيةَ بفِطْرتها ، المتفانيةَ فى حبها وإخلاصها ، لم يكن يفوتُها أن ترى بعينِ فِطنتها وذكائها فى تلك الزاويةِ المظلمةِ من زوايا قلبِه ، ذلك الهمَّ الخفىَّ المُكْتَنَّ [٣] ، وكان يُساعدُها على فهمِه واسْتِكْناهِه [٤] تلك الأحاديثُ التى كانت تسمعُها تدورُ من حين إلى حين بين القائدِ وزوجتِه عند ما كانا يمرّان بها أو يقفان على مقربة منها وهى جالسةٌ تحت بعض الجدران أو فى ظلال

---

(١) لم يهتد اليها .

(٢) استحال : تغير .

(٣) المستور .

(٤) معرفة كنهه وحقيقته .

بعض الأشجار لا يَحْفِلان بها ولا يُلْقِيان لها بالا ؛ فقد سمعتْه مرةً يقولُ لها : إنى أُحِبُّك يابازيليدُ حُبَّ المرء نفسَه التى بين جنبيه ، ولقد عشتُ حياتى كلَّها قانعا من العيش بتلك اللذةِ الوحشيَّةِ الدمويةِ ، لذةِ القتلِ والأسر وسفك الدماء وتقطيع الأوصال ، حتى رأيتُك تتطلَّعين إلى تاج المُلْك وتَشْتهين أن تَضَعيه فوق رأسِك ، فأحببتُه من أجلك ، وأصبحتُ لا أقترح على الدهر أمراً سوى أن أرى تلك الجبهةَ اللامعةَ المضيئة يتلألأُ فوقها ذلك التاجُ المرصَّعُ البديع ؛ فلا تيأسى منه ولا تَقْنَطى ، واعلمى أننى سآتيكِ به وإن كان كوكباً نائياً فى آفاقِ السماء ، أو دُرَّةً راسبة فى أعماق البحار . وسمعتْها مرةً تقول له : ما أجملَ وجهَك يابرانكومير ، وما أبدعَ ضياءه ولألاءه ؛ وما أنصع هذه الشعورَ البيضاء التى تدور به دَورةَ الهالةِ بالقمر ! وما أجملَ تاجَ المُلْكِ يوم يُوضَعُ على رأسك فتتحدُ الأضواءُ الثلاثة جميعُها ويموجُ بعضُها فى بعض فتتراءى فى أجملِ شكل وأبدع منظر ! ؟ إنك ستكون ملِكا يامولاى ، وستكون أعظمَ مُلوكِ العالم شأنا وأرفعَهم مقاماً ، وستجتمعُ فوق عرشك الرفيعِ الأمجادُ الثلاثة : مجدُ النسب ، ومجد الحروب ، ومجد المُلْكِ ؛ وقد ألقى الكاهنُ فى نفسى كلمتَه التى تَنبَّأ لى بها ، وما هو بالكاذبِ ولا المجنون ، فكُن على ثقة من صدقِه وحكمته ، واعلم أنه ليس بينك وبين التاجِ إلا خُطوةٌ واحدة ، فاخْطُها بهمةٍ وعزيمة تَبْلُغ الغايةَ التى تُريد . وسمعتْها مرةً تقول له : إننى لا أخاف على أملِنا أحداً من الناس سوى ولدِك قُسطنطين ؛ فقد علمتُ أمس

من بعضِ أصدقائه أنه يُنكرُ عليك كلَّ الإنكار هـذا المسعى الذى تسعاه اليوم ، كما سمعتُ أنه يُثَبِّطُ الناسَ عنك ويُزحزحُهم من حولك ويُلقى فى قُلوبهم اليأسَ من نجاحك ؛ ولقد حدَّثنى عنه بعضُ الناس أن ذاكراً ذَكَر له مرةً ولايةَ العهدِ مُهَنِّئاً إياه بها ؛ فغَضِب واحتدَّ وتَغيَّظَ عليه تَغَيُّظاً شديداً وقالَ له : إننى جُندىٌّ وُلِدْتُ فى ساحة القتال وسأموتُ فيها . وإنَّ كلمةً كهذه الكلمةِ المؤثرة يقولُها أميرٌ مُطاعٌ فى الجيش والشعبِ كولدك ، لا بدّ أن تتركَ أثراً سيئاً فى نُفوس الناس جميعا وتَفُتَّ فى عَضُدِ أنصارك وأعوانك ، وربما كانت سبباً فى القضاءِ على آمالك وأمانيك ؛ ولا أعلمُ لخُطَّتِهِ هذه سبباً سوى ذلك البغضِ الشديدِ الذى لا يزال يُضْمِرُه لى فى أعماق قلبه مُذْ دخلتُ بيتكم حتى اليوم ، وما أذنبْتُ إليه ذنباً ولا أسلفْتُ عنده جَريرة ، فهو يُؤْثِر أن يحرِم نفسَه وبيتَه ذلك الشرفَ العظيم الخالدَ على أنْ يرانى جالسةً على العرش بجانبك أستظل بظلِّ نعمتك وأُشاركك فى التمتع بمجدك وسلطانك ، فقاطعَها الأمير وقالَ لها : لا تُصدقى يا بازيليدُ شيئاً مما يقولون ، فقسطنطين أَبَرُّ بى وأعظم حُبا وإخلاصاً منْ أن يعترضَ سبيلَ رغبةٍ يعلم أنى أرغبها وأَصْبُو إليها ، ولا أعلمُ أنه يُبْغِضُك أو يُضمرُ لك فى نفسه شيئاً من الشر الذى تَذْكرين ، بل هو يحترمُك ويُجِلُّك إجلالَه إياى ، ويحبُّ لك من الخيرِ ما يحبُّ لى ولنفسه ولا يُؤْثر على مَرْضَاتِنا شيئاً .

وكذلك ظلَّتْ مليتزا تسمع أمثالَ هذه الأحاديثِ فتعلمُ منها ما يدور بنفسَىْ هذين الشخصين الطامعَين . وتعلم أن هذا الذى يدور بنفسيهما إنما هو علة ذلك الهم الذى يُعالجُهُ قُسطنطينُ فى أعماق قلبه ويُكابدُه ؛ ولكنْ لم يَخْطِرْ ببالها مرةً أن تَنْقُل إليه شيئاً مما سمعتْه ، إعظاماً له وإجلالا ، وضَنًّا بنفسها وبأدبِها أن تُفاتحَه فى أمر لم يشأ هو أن يفاتحَها فيه .

التاج

جاء اليومُ المعيَّنُ لاجتماع الجمعيةِ الوطنيةِ للنظرِ فى انتخاب الملك الجديد ، فنظرت فى المسألة نظراً خالصاً مجرّداً عن المَيل والهوى ، فرأتْ أن العدوَّ لايزالُ على الأبواب ، وأنه لايزالُ قوىَّ الشَّكيمَةِ صعْب المِرَاس ، وأَن الوطنَ يحتاجُ إلى الأمير برانكومير قائداً أكثرَ مما يحتاج إليه ملكا ! وأنّ الأسْقُفَّ « أتينَ » أعظمُ رجال المملكة عقلا وأسماهم إدراكا وأقواهم سلطاناً على نُفوس الجيش والشعب ؛ فقرّرتْ تقليدَه مُلْكَ البلقان ، وأعلنتْ قرارَها فى جميع أنحاء المملكة ، فقابله الشعب بالرضا والتسليم ، ولم يختلف عليه إلا العددُ القليل من أشياع القائدِ وأنصاره .

ثم أُقيمت حفلةُ التتويج بعد أيام ، فحضرها جميعُ وُجوه المملكة وعيونِها ، ورجالُ السياسة والجيش ، ماعدا القائد برانكومير ، فلم يأْخُذْهُ الملكُ بهذه الْهَنَةِ ، بل أَعْتَبَهُ (١) وأعطاه من نفسه الرضا ، ولم يَقْنعْ فى أمره بذلك حتى أعلن عَزْمَهُ على السفر إلى الحدود لزيارته فى قلْعته ، وما لبث أن سافر فى جَمْع من حاشيته وجُنده ، وكانت رسله قد تقدمتْه لإنباء القائد بِمَقْدَمِه ،

---

(١) الهنة : الذنب الصغير . وأعتبه : لم يغضب لفعلته واقتصر الأمر بينهما على العتاب يتبعه الرضا .

فامتعضَ لذلك وتَمَرْمَر [١] ، وكانت تحدّثه نفسه أن يسافر إلى بعض الجهات حتى لا يستقبله عند قُدومِه ، لولا أن أشارتْ عليه بازيليدُ بغير هذا الرأى ، فأذعنَ لها راغما ، ونزل لانتظاره أمام باب القلعة حتى حضر ، فحياه الملكُ حين رآه تحيةَ الإجلال والإعظام ، وعانقه عِناقا طويلا ، وقال له : أما المَلكُ الجالسُ على عرش البلقان وصاحبُ الأمرِ والنهى فيه فهو أنت يابرانكومير ، أما أنا فإنى خادمُك الأمينُ المخلص القائم بتنفيذ أوامرك وتجييشِ الجُيوشِ لك وإمدادِك بما تحتاجُ إليه من العُدَّة والمؤونة ، واعلم أن الأمةَ لم تضنَّ عليك بالعرش والتاج ولا رأت أن أحداً أجدرُ بهما منك ، ولكنها ضنَّتْ بك أنت ـ وأنت حِصْنُها المنيع ودِرعُها الواقية وبطلُها الذى لا يُغْنِى غَنَاءَهُ فى موقعةٍ أحدٌ ـ أنْ يشغلَك شاغلُ المُلْك عن شأنك الذى أنت فيه والذى نَصَبْتَ له نفسَك طولَ حياتك ، فآثرتْ بقاءك فى هذه القلعة تحميها وتحمى المملكةَ بحمايتها ، فإن لم تكن المَلِكَ الجالسَ على عرش « فيدين » فأنت الملكُ المتبوِّئ عرشَ الأفئدةِ والقلوب ، واعلم أننى ما قدِمْتُ إليك مَقْدَمى هذا لأعتذرَ عِندك من ذنبٍ أذنبتُه إليك ، أو لأتوجّعَ لك من كارثة نزلتْ بك ؛ لأنى أعلمُ أنك أجلُّ وأرفعُ من أن تعتبرَ عِبْءَ المُلْكِ وهَمَّهُ نِعمة تأسفُ على فَقْدها ، بل جئتُ لأباركَكَ وأُمسحَك وأدعوَ لك الله أنْ يُمِدَّكَ بِرُوحٍ من عِندِه حتى يَتِمَّ لنا على يدِك النصرُ الذى نرجوه لأنفسنا ،

---

(١) تمرمر : اهتز هزة الغضب .

فيأمن البلقانُ أبَدَ الدهرِ أن تَخْفِقَ على ربوعه بعد اليومِ راية غير راية المسيح ؛ أو يَرِنَّ فى أجوائه صوتٌ غير صوتِ الله .

ثم تقدّمَ نحوه ووضع يده على رأسِه يُباركه ويُصلِّى له ، وبرانكوميرُ يتميَّزُ غيظاً وحَنَقا ، ولكنه يَتَجَلَّدُ ويستمسك ، حتى فرغ الأُسقفُ من شأنه ، فلم يَرَ بُدًّا من أن يستقبلَ حفاوتَه بمثلها ، فمدّ إليه يده وهنّأه بالمُلْكِ واعتذر إليه من تقصيرِه فى حضورِ حفلة التتويج ، فقَبِل عُذرَه ، وقضى بقيَّةَ يومه عنده هانئاً مغتبطا لايرى إلا أنه قد أرضاه ومحا أثرَ ذلكَ العَتْبِ من نفسِه .

ثم عاد بِمَوْكِبِه راضياً مسرورا ، فشيَّعه القائدُ إلى ضاحية المدينة ولبث واقفاً مكانَه ساعةً ينظرُ إلى ذلك الموكِبِ الفخْم العظيم ، ويسمعُ موسيقاه الشجيَّةَ الجميلة ، حتى غاب عن بصره ، فانقلب إلى قصره ثائراً مُهتاجا يصيحُ ويَجْأَر ويهذِى هذيان المحمومين ، حتى بلغ غُرفتَه الخاصةَ فوقف بجانبِ نافذةٍ عالية مُشْرِفة على الجماهير الغادية والرائحة فى طُرقها ومذاهِبِها ، وأنشأ يحدثُ نفسَه ويقول :

تبًّا لك أيها الشعب الخائن الغادر ، لقد جازيتَنى شرَّ الجزاء على عملى ، وكفرْت بنعمتى التى أسديتها إليك ، ويدِى التى اتخذتُها عندك ، أيامَ كنت أسهرُ لتنام ، وأَشقَى لتَسْعَد ، وأقضى ليالىَ الطَّوَالَ سجيناً فى قلعتى لاأبرحُها ولا أنتقلُ منها لأدَبِّرَ لك أمر الحماية التى تحميك وتصونُ أرضَك

وديارَك ، وأنت لاهٍ لاعب هانئٌ مغتبط ، يمرح عامتُك فى مَنازههم ومسارحِهم ليلَهُم ونهارَهم ، ويُقيم خاصتُك حفلاتِ الرقصِ والغِنا فى قُصورهم وأنديتهم ، فكان جزائى عندك أن ضننتَ علىَّ بالعرش الذى أنا عِمادهُ وملاكه وحاملُ قوائمه وعَمِيده ، وآثرْتَ به كاهناً مأفونا (١) لا شأنَ له فى حياته سوى أن يمسحَ رءوسَ الاطفال ويُهَمْهِمَ حَوْلَ أَسِرَّة الموتَى ، فبئسَ ما جَرَرْتَ على نفسك من الويل فى فَعْلَتك التى فعلْت ، وبئسَت الساعةُ التى رأيتَ فيها هذا الرأىَ الفائل الْخَطِل (٢) : لقد فَلَلْتَ (٣) بيدِك سيفَك الذى كان يحميك ويَصُونُك ، وأطفأْتَ جذْوَةَ الحماسةِ فى صدر قائدك الذى كان يذود عنك وعن عِرْضِك ، ويَحمى أرضَك وديارَك ؛ فابْتَغِ لك بعد اليوم قائداً يتولَّى حمايتك وصيانتك ، أو فاطلب إلى أُسْقُفِّكَ التقىّ الصالح الذى توَّجْته بيدك واخترته بنفسك لنفسك أن يستنزل لك بدَعَواتِه النصرَ من آفاق السماء !

وإنه لَيُرَدِّدُ فى موقفه أمثالَ هذه الكلمات وينفث سُمومَ الحقد والشر على العالم بأجمعِه ، إذ دخلت عليه الأميرة باسمةً مُتَطَلِّقَة تختالُ فى حُلَلِها وحُلاها ، فأخذتْ بيده وقالت له : ٱرْفُقْ بنفسك يابرانكومير .

---

(١) المأفون : الضعيف الرأى ، والأحمق .

(٢) الفائل : الذى يخطئ فى فراسته . والرأى الخطل : الفاسد المضطرب .

(٣) فللت السيف : ثلمت حده .

واعلم أن نبوءةَ الكاهنِ لا تَكْذِبُ ولا تخيب ، وأُبَشرُك أنك ستكونُ بعد شهرٍ واحد ملكا على البلقان ، ولا تسألنى كيف يكون ذلك ! فَدهِش لأمرها وحاول أن يسألها عن معنى كلمتها ومأتاها فلم تُمَكِّنْه من ذلك ، لأنها تهافَتَتْ عليه [1] واعْتَنَقَتْه ووضعتْ على فِيه قبلة شهيَّة أطفأت بها جذوة حِدَّتِه وغضبه ، ثم أفلتتْ من يدِه وعادت أدراجها .

---

(١) التهافت : السقوط .

المؤامرة

اضطجعتْ بازيليدُ فى سريرها وجلست خادمتُها صوفيا تحت قدمَيها تُروّح لها بمِروَحتِها وتُحدّثها حديثَ تلك الآمال الحِسان التى لا تزال تتراءى لها فى يَقَظتها وتَحلُمُ بها فى منامها ، وإنهما لكذلك إذ قُرع البابُ قَرْعا خفيفاً ، فعرفتْ صوفيا مَن القارعُ وفتحتْ له ، فإذا « بانكو » الجاسوسُ التركى متنكرا فى زِى الموسيقارِ المِسكين ، فدخل وحيّا الأميرةَ تحيةَ الإجلال والإعظام ، ثم أخذ مَقعده الذى كان يَقْتَعِدُه من الغرفة فى كل ليلة ، وأنشأ يضرِبُ على قيثارته قطعة رومانية جميلة من تلك القِطع التى كان أَعَدَّها منذ عهد طويل ليَخْلُبَ بها لُبَّ تلك المرأةِ ويستهْوِيها حتى أَتَمَّها ، فطرِبتْ لها طَرَبا شديدا ، ثم دعت خادمتَها فأرسلتْها فى بعض الشؤون ، فلما خلا بها المكان ألقى الموسيقى قيثارتَه جانباً وخلع عنه رِداءَ التنكُّر ، ثم مشى إلى سريرها فجلس بجانبها وقال لها : ماذا تمّ فى المسألةِ يا بازيليد . فقد طال مُقامى فى هذا البلدِ وأخشى أن يرتابَ بى أحد ، وليس فى آستطاعتى أن أَبقى هنا أكثرَ من ثلاثة أيام ثم أنصرف لشأنى .

فاعتدلتْ فى جِلستها وقالت له : لقد فاتحتُ الأميرَ ليلةَ أمسِ فى المسألة وعرضت عليه مُقْتَرَحك الذى اقترحتَه ، فأصغى إلى حديثى فى مبدإ الأمر ،

ثم لم يلبث أن اكفهرّ وجهُه واكتأب وأبى أن يقبل منى كلمة واحدة فى هذا الشأن ، وظل يُقاطعنى ويُعارضُنى معارضة شديدة ، فلم أشأ أن ألِحَّ عليه مخافةَ أن يرتاب بى وبمقصدى ، وسأستأنفُ معه الحديثَ الليلةَ بعد رجوعِه من المعسكر ، وأرجو أن ينتهىَ بإذعانه وتسليمه ، ولا يفُتْك يا سيدى أن من أصعب الأمور على رجل شريف عظيم مثل برانكومير ، أن يتحوّلَ فى ساعة واحدة عن أخلاقه وطبيعته . وأن ينقلبَ فجأة من رجل وطنى مخلص يبْذُل دمَه وحياته فى سبيل الدفاع عن وطنه والذَّوْدِ عنه ، إلى خائن سافل يبيع ذلك الوطنَ العزيز عليه من أعدائه بِعَرَضٍ تافهٍ من أعراض الحياة ، فلا بد من مُهادَنَتِهِ ومُوَاتَاتِه (١) وأخْذِه بالرَّوِيَّةِ والتُّؤَدَة .

قال : ليس فى الأمر خيانة ولا دناءة ، ولا بيْعُ وطن ولا أُمّة فإنا لا نُريد أن ندخلَ بلادكم مستعبِدين أو مُسْتَرِقّين ، بل أصدقاء مخلصين . وما خطر ببالنا قطُّ حينما فكرنا فى افتتاح بلادكم والنزولِ بها أن نُصادرَكم فى حريتكم الدينية والاجتماعية ، أو نسلُبَ أموالكم وننتهك أعراضَكم ، أو نُغْلِقَ أبوابَ كنائسكم ومعابدكم ، أو نُخْرِسَ أصوات نواقيسكم وأجراسكم ، إلا لنكونَ أعوانَكم على ترقية شؤونكم الاجتماعية والاقتصادية ، والسيرِ بكم فى طريق المدنية الأدبية والسياسية ، حتى تبلغوا الذروة العليا منهما ، ولِنَحْمِيَكم فوق ذلك من أعدائكم المَجَرِّين الذين يطمعون فى امتلاك بلادكم واغتيالِها ، وندفعَ عنكم شرورَهم ومطامِعَهم ، فنحن أصدقاؤكم المخلصون الأوفياء من حيثُ

(١) الصبر عليه .

تظنُّون أننا أعداؤكم وخصومُكم .

فابتسمت بازيليد ابتسامة الهُزْء والسُّخرِيَة ، ونظرت إليه نظرة عتْب وتأنيب ، وقالت له : إن برانكومير يا صديق ليس موجوداً معنا لنَخْدَعَهُ بأمثالِ هذه الأساليبِ الكاذبة ، أما أنا فإنى لا أنخدع بها ولا أغتر ، لأنى أعلم كما تعلمُ أنت وكما يعلم الساسة الكاذبون جميعا أن الفاتحين من عهدِ آدمَ إلى اليومِ وإلى أن تُبَدَّلَ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسموات ، لا يفتحون البلاد للبلاد بل لأنفسهم ، ولا يمتلِكُونها لرفع شأنها وإصلاح حالها والأخْذِ بيدها فى طريق الرقىّ والكمالِ كما تقول ، بل لامْتصاصِ دمها وأكْل لحمها وعَرْق عَظْمِها [1] وقتْل جميع مواردِ الحياة فيها . والأمةُ إن لم تتولَّ إصلاحَ شأنها بنفسها لا تُصلحُها أمةٌ أخرى ، مهما حَسُنَت نيتُها ونبُلَ مقصدُها ؛ والصلاحُ إن لم ينبُتْ فى تُربة الأمة نفسِها ويُزْهِرْ فى جوّها ويأتلفْ مع مِزاج أفرادها وطبيعتهم لا ينفعُها ولا يُجْدِى عليها ، ويكون مثلُه مثل الزهرةِ التى تُنقل من مَغْرِسِها إلى مَغْرِسٍ آخر ، فهى تُزْهِرُ فيه أياما قلائلَ ثم لا تلبث أن تذْبُلَ وتَذْوِى .

فإن وُجد بين أولئك الطامعين من يذهبْ فى سياسته الاستعمارية مذهبَ الإصلاح والتشييد ، فكما يسَمِّنُ صاحبُ الشاةِ شاتَه ليذبحها ويأكلَها ، وكما يتعهدُ صاحبُ المزرعة مزرعتَه بالرىِّ والتسميد ليستكثرَ غلتَها وثمراتها .

---

(١) عرق العظم . أكل ما عليه من اللحم .

أما الحرية الدينية التى تُريدون أن تمُنّوا بها علينا فما أهوَنها عليكم ما دامت لا تعَطّلُ لكم غرَضاً ، ولا تقف لكم فى سبيل مَطْمع ، وقديماً كان الفاتحون يَخدعون الشعوبَ الجاهلةَ بإرضائها فى شؤون دينها ، ليَسْلُبوا شؤونَ دُنياها ؛ ويوجّهون نظرَها إلى الشؤون الروحيةِ الخالِصَة ، ليقطعوا عليها طريق النظر فى الشؤون المادّية الحيَوِيّة ، فكان مَثلُهم فى ذلك مثلَ اللصّ الذى يَدُسُّ لمن يريد سرقته مادّةً مُخدِّرَةً فى طعامه لا تكلّفه إلا ثمناً يسيراً ليستولىَ على الجمّ الكثيرِ من دنانيره ودراهمِه ، على أن القوّةَ الدينية فى الأمة أثرٌ من آثار القوة السياسية . فإذا ضَعُفَ أمرُ الأمة فى سياستها، ضَعُف أمرُها مع الأيام فى دينها، ولا بقاءَ لدين من الأديان يعيشُ تحت سلطانِ دينٍ آخرَ ويستظل برايته ، إلا كما يبقى الثلجُ تحت أشعة الشمس وحرارتها ، ومَنْ ظَنّ غير ذلك فعلى عقْلِه العَفاء !

أما حمايتكم إيانا من أعدائنا فليس لنا على وجه الأرض عدوٌّ سواكم فاحْمُونا من أنفسكم قبل أن تحمُونا من غيركم، وهَبْ أن المَجَريين أعداؤنا كما تقولون ، فهل يطمعون فى شىء أكثرَ مما تطمعون فيه أنتم ؟ وهل يُحاولون منا غيرَ هذا الفتح الذى تحاولونه اليوم ؟ وهل من الرأى أن يهَبَ الإنسان متاعَه رجلًا مَخافةَ أن يغلبه عليه رجلٌ آخر ؟ أو أن يذبح نفسه بيده فِرارا من ذابح يريد أن يذبحه ؟

إنكم ماجئتم هنا لِتَحْمُونا من أعدائنا ، بل لتَحْتَموا بنا من أعدائكم ،

لأنكم إنما أردتم بامتلاك هذه البلادِ واستعمارِها أن تتخذوا من حُصونها وقلاعها وجبالها وأسوارها ودماء أبنائها وأرواحِهم، وِقاية لكم تَتَّقُون بها زَحْفَ المجرِبين عليكم وعُدْوَانَهم على أرضكم .

هذه هى الحقيقةُ التى لارَيْبَ فيها ، فإن كنت تُريد بما قلته أن تُعلِّمنى ما أُلَقِّنُهُ لذلك الرجل الذى اتفقنا على خداعه وخَتْلِه ، فإننى أحفظُ كثيراً من أمثال هذه الرُّقَى والتعاويذ ، فلا حاجة بى إلى سماعها منك ، فلنعملْ فى المسألة معاً متكاشفَيْن متصارحين ، ولْتعلمْ أن الذى أسعى لإعطائك إياه وتسليمك زمامَه إنما هو الوطنُ بأجمعِه : أرضُه وسماؤه ، وبَرُّه وبحرُه ، وخيراتُه وثمراتُه ، وحريةُ أهله وسعادتُهم ، وأن الثمن الذى أَتَقَاضَاكَهُ فى سبيل ذلك ثمنٌ بخسٌ ضئيل لايزيد عن كرسىّ من الخشب مُمَوَّهٍ بالذهب يسميه الجهلاء عرشاً وهو فى البلد المغلوبِ على أمره المسلوبِ حريتَه واستقلالَه سجنٌ ضيق ، لولا خدَعُ الحياة وأكاذيبُها لما استطاع الجالسُ عليه أن يهدأ فيه ساعةً واحدة ، فأنا أَبيعك هذا الوطنَ الثمينَ وآخُذُ منك ذلك الكرسىَّ الحقير ، وأنا عالِمةٌ قيمةَ ما أُعطِى وقيمةَ ما آخُذ ، فلا تحسبْ أنك تخدعنى أو تدَاهِنُنى (١) فى هذه الصَّفْقة ؛ وأُقْسِمُ لك بشرفى وشرفِ « بيزنطيَّة » لو كان هذا الوطنُ وطنى وكانت تربتُه مدفنَ آبائى وأجدادى لما بعتُكَ ذَرَّةً واحدة من ترابه بجميع عُروشِ الأرض وتيجانها .

---

(١) تغشنى .

فاصْفَرَّ الجاسوس وارْبَدَّ وجهُهُ وقال : إننا ما اجتمعْنا هنا لتفسير معنى الفُتوح والاستعمار ، بل لأعرِض على زوجك هـذا العهدَ السلطانىّ بتقليده مُلْكَ البلقان وإلباسه تاجَه إن هو تمكنَ من إخلاء التُّخُومِ (١) من حُرّاسِها وسَهّلَ لجيشِنا سبيلَ اجتيازِها ، فإن قَبِلَ فذاك ، أوْ لا عُدْتُ بعد ثلاثة أيام إلى مركز الجيش ورفعتُ الأمرَ إلى سلطانى وقائدِى ، وعادت الحربُ إلى شأنها الأوّل أو أشدّ ، ولا يعلمُ إلا اللهُ متى تنتهى وماذا تكون عاقبتُها .

فتناولت منه العهدَ وقالت له : سنلتقى بعد ليلتين أو ثلاث وسأخبرُك بما تم عليه الاتفاق .

فقام إلى مكانه الأوّلِ وأخذ يضربُ على قيثارته بعضَ الأناشيد الدينية ، وما هى إلا لحظة حتى عادت الوصيفة ، وكان الليل قد انتصف ، فاستأذن للانصرافِ وانصرف .

---

(١) التخوم : الحدود .

الأمل

الحبُّ شقاءٌ كله ، وأشقى المحبين جميعاً أولئك الذين يحبون بلا أمل ولا رجاء ! .

إنهم يَذرِفون دموعهم وهم عالمون أنهم يسكبونها فى أرضٍ قاحلة جدباء لا تنبت لهم راحةً ولا سعادة ، ويسهرون لياليَهُم وهم يعتقدون أن ظُلُماتها لا تَنْحَسِرُ عن فجرٍ منيرٍ أو صبح سعيد ، ويُطْرِقون برءوسهم فى خَلَواتهم لا ليُفكروا متى تنتهى أيامُ شقائهم أو تبتدئُ أيامسعادتهم ، فحياتُهم كلُّها شقاء لا فرقَ بين أمسها وغَدِها وحاضرِها ومستقبلها ، بل ليُفكروا متى يرحلون عن هذه الدارِ ليستريحوا من آلامها وهمومها ، فإن كان لابدّ لنا من أن نَذْرِفَ قطرة من دموعنا على شقّ فى هذه الأرض ؛ فلْنذرفْها على والدٍ ثَكِلَ ولدَه فى رَيْعانِ شبابه ، أَحَبَّ ما كانَ إليه ، وأَلْصَق ما كان بقلبه ، من حيثُ لا أملَ له فى رَجْعته ولا رجاء فى لقائه ، أو عاشقٍ عَلِمَ فى ساعةٍ ما كان يتوقَّعُها أن حبيبته قد تزوجت من غيرهِ وأنها ستسافر اليومَ أو غداً إلى وطنٍ ناء لارجعةَ لها منه أَبَدَ الدهر ، فوقف أمامها يُوَدِّعُها وَدَاعا لا يقول لها فيه : إلى الغد أو إلى الملتقى ؛ ولا يأخذُ عليها فيه عهداً أو ميثاقا ؛ بل يصْمُتُ صمتاً تذوبُ فيه كبدُه القريحة ذَوْبا ، حتى إذا غابت عن بصره

وانقطع آخرُ آثارِها رَجَعَ أدراجَه وهو يعلمُ أن لا نصيب له فى العيش بعد اليوم ، وأنَّ هذا آخرُ عهدِه بالحياة ـ أو فتاةٍ بائسة مِسكينة كَتب لها شقاؤها أن يَعْلَقَ قلبُها بعظيمٍ من عظماء الحياة المُدِلِّينَ بأنفسِهم ومكانتِهم ، فلا تستطيعُ الصُّعودَ إليه فى سمائه ، وليس من شأنِ مثلِه أن يهبطَ إليها فى أرضها ، فهى تَبكيه ولا يشعرُ ببكائها وتهتفُ باسمه ليلَها ونهارَها ولا يسمعُ نداءها ، ولا يزال هذا شأنَها حتى يوافيَها أجلُها فيريحَها .

كذلك كان شأنُ ميلتزا ، فإنها أحبت سيدَها حُبَّ العابد إلهَهُ المعبود ، وافتتنت به افتتانا كانت تحسبُه فى مبدإ أمرها عاطفةَ ولاءٍ وإخلاص ، فإذا هو لَوْعَةُ الحب وحُرْقَةُ الغرام ، ولكن أَنَّى لها وهى الفتاةُ النورية الساقطة المِسكينة أن يمتدَّ بها مَطمعُها إلى ذلك الكوكب النائى فى سمائه ، أو أن تَمُتَّ إليه بسبب من تلك الأسباب التى يَمُتُّ بها الناسُ بعضُهم إلى بعض ، فكانت وهى أقربُ الناس إليه أبعدَ الناس عنه وأَنْآهم من مكانه : لا تستطيعُ أن تتجاوَزَ فى موقفها معه منزلةَ الخادم من المخدوم ، والسيدِ من المسود ، والصَّنِيعة من صاحب النعمة .

وكان يُقلقها أشدَّ القلق ويكادُ يُذيبُها حياءً وخجلا خوفُها أن يطلعَ منها على سَرِيرةِ نفسها ، أو أن يعثرَ يوما من الأيام بتلك اللَّوعة المتأجِّجة فى صدرها ، فيتهمَها فى عقلها ويَسْخَرَ بينه وبين نفسه بِتَصَوُّراتها وآمالها [1] ، فكانت تفرُّ من نظراته كلما وقعت عليها حتى لا يرَى فى عينيها أثرَ الدمع ولا حمرةَ السهر ، وتَهرُبُ

(١) الفصيح أن يقال : سخر منه ، واستهزأ به .

من الخَلْوَةِ به جهدَها حتى لا يرتابَ فى اصفرار وجهها واضطرابِ أوصالِها وذُهولِ عقلها ولجلجةِ لسانها ، أى أنها كانت محرومةً كلَّ شىء حتى اللذةَ الضئيلةَ التى يتمتعُ بها أقلُّ المحبين حظا وأخيبهُم فى الحب سَهْما ، وهى الإفضاءُ بمكنون صدرها إلى ذلك الذى تحبُّه وتعبده ، وكان كلُّ مايعرفُ قسطنطينَ من شأنها أنها فتاة مخلصة وفيَّة تُحبه حبَّ العبدِ الشَّكور لسيدِه المُنْعم ، وكان يجدُ فى بلاهتِها وسَذاجَتِها وطهارةِ قلبها ونقائه وصدق لسانها وإخلاص قلبها مَلْهاة يتلهَّى بها عن همومه وأحزانه ، ومُتكئاً يَتَّكِئُ عليه فى ساعات إعيائه ونَصَبِه ، لا يَزيدُ على ذلك شيئا ، فكانت إذا جَنَّ الليلُ وأخذتِ الجُنُوب مضاجعَها جلستْ فى فراشها تُساهِرُ الكوكبَ وتُطالعُه وتَزْفرُ زَفَرات حَرى موجعَة وهى لا تعلم ماذا تشكو ولِم تبكى ؟ لأنها لاتعرفُ لها غرضاً ولا غاية ، ولو استطاعت أن تَفهَم من شؤون نفسها مايفهم الناس من شؤون نفوسِهم لَعَرَفَتْ أنها إنما تبكى على أنْ ليس لها فى الحياة كما للناس أملٌ ولا رجاء .

هذا هو الحب الطاهر البريء الذى لاتَشُوبُهُ الأغراضُ والغايات ، ولا تُحيط به الرِّيَبُ والشُّكوك ، والذى طالما نَشَدَهُ الناس فى كل مكان فأَضَلُّوه ، وذابت قلوبُهم حسرة عليه فلم يجدوه ؛ وأىُّ سعادةٍ فى الدنيا أعظمُ من سعادة نفس تجد بين يديها نفساً طاهرة مخلصة تُحبها وتعبُدها ، وتمتزجُ بها امتزاجَ الماء بالخمر ، والأريج بالزَّهر ؟ ولقد ظَفرَ قسطنطينُ من تلك الفتاة بهذه

النفس المخلصة المتعبِّدةِ التى تحزن لحزنه ، وتفرح لفرحه ، وتغضب لغضبه ، وترضى لرضاه ، ولا تعرفُ لها وجوداً منفصلا عن وجوده ، ولا حياة مستقلة عن حياته ، فكانت منه بمنزلةِ المرآةِ من الوجه : تُقَطِّبُ إذا قَطَّب ، وتبتسم إذا ابتسم ، وتَطير فَرَحاً وسروراً بانتصاراته ، وتذوبُ كَمَداً وحُزناً لآلامه وأحزانه ، وتحب أباه حُبَّهُ إياه ، وتَنْفِرُ من زوجِ أبيه نُفوره منها ، وهو وإن لم يكن يُفاتحها فى شأنٍ من شؤونه الخاصة ، ولا يُفْضِى إليها بسرٍّ من أسرارِ بيته وعلائقِ بعض أفراده ببعض ، إلا أنها كانت تشعر (١) أن تلك المرأةَ اليونانية الدخيلة خطرٌ عظيمٌ على الوالد والولد ، بل على الأمة بأسرِها . وكان شعورُها هذا يقودُها إلى مُراقبتها ومُلاحقتِها فى كل مكان ، وتَرَصُّدِ حركاتها وسكناتها عَلَّها تَهْجُمُ منها على ذلك السرّ الهائل الذى تتوهَّمهُ تَوَهُماً ولا تعرِفه . فتَكشِفَه وتُمزِّقَ عنه الستار ؛ حتى واتاها القدرُ يوما من الأيام فعَثَرَتْ به . . .

---

(١) انظر التعليق فى هامش ص (٩) .

السر

رجع قسطنطينُ من بعض غزواته ، فدخل على ميلتزا فرآها مُطرقة واجمة ، فلم يُلْقِ لها بالا وخلع رداءه ثم جلس على كرسيِّه جِلْسَةَ الراحة والسكون ، وإنه لكذلك إذ طَرَقَ مِسْمَعَه صوتُ تلك القيثارةِ البديعة التى كان يسمعُها من حين إلى حين تَصْدَحُ فى قصر أبيه ، فطرِب لها طرباً شديدا ، وافترَّ ثغرُه بعد عُبوسه ، ثم نظر إلى ميلتزا وهى جالسة تحت قدميه ، فرآها مصفرّةً مُغْبَرَّة الوجه ذاهلة ، كأن نكبةً من النكبات العِظام قد نزلتْ بها . فعَجِبَ لأمرها وقال لها : أَلَا تَطْربين معى ياميلتزا لهذه النغمات الشجيَّةِ البديعة ؟ ! فرفعت رأسَها إليه وكأن دمعة لامعة تترقرق فى عينيها ، وقالت له : لا يامولاى ! فدهِشَ لقولها وقال : ولِمَ ؟ قالت : لأنى لا أحبُّها ! قال : ولم لا تحبينها ؟ قالت : لأنى لا أُحب صاحبها ، قال : وهل تعرفينه ؟ أليس هو ذلك الرجلَ البائسَ المسكين الذى يختلف إلى الأميرة من حين إلى حين ليُسمِعَها أناشيدَ قومها وأغانِيَهُمْ فتعودَ عليه ببعض نَوَالِها ؟ قالت : إنه ليس بسائلٍ ياسيدى ولا مِسكين ، بل هو الضابط العظيمُ إبراهيم بك أحدُ قُوّاد الجيش التركى ، فانتفض قسطنطينُ مذعوراً واستوى فى مكانه جالساً وقال : ماذا تقولين ؟ قالت : إنى كنت مخدوعةً به قبل اليوم ، حتى رأيتُه ليلةَ أمسِ واقفاً تحت

شجرة وارفة من أشجار الحديقة يُصَلِّى صلاةَ المسلمين مُطْرِقا خاشعا مستقبِلًا قِبْلَتَهُمْ ، فارتبْتُ فى أمره ، ثم دَنَوْتُ منه وأنعمتُ النظر فى وجهه من خلال بعض الأغصان ، من حيث لا يشعر بمكانى ، فعرفتُه وذكرتُ أنه ذلك البطلُ العظيم الذى كنت أراه فى معسكر الجيش التركى لا يزال مُرافقاً للقائد الكبير ، يسيرُ فى رِكابه حيث سار ويتنقّل معه فى غَدَواته ورَوْحَاته ؛ وإن غابت عنى مَعرفته فلن تغيبَ عنى معرفةُ تلك الشَّجَّةِ الهِلالية الواضحةِ فى جبينِه ، وذلك الخالُ الأسْوَدُ المرتسِمُ تحت عينه اليسرى ، بل أعرِفه من تلك النغماتِ الشجية التى يغنّيها الآن . . .

وهنا توقفتْ عن الكلام ، واضطربت وكأنَّ كلمةً حائرةً ، تَختلجُ بين شفتيها ؛ فعجب قسطنطينُ لأمرها وسألها ما بالُها ؟ فأطرقت هُنَيْهَةً ثم رفعت رأسها فإذا دمعةٌ تَنحدرُ على خدّها ، واستمرّت فى حديثها تقول : نعم ، إننى أعرفه من تلك النغمات التى كان يدعونى إلى الرقصِ عليها فى خَيمته فى المُعَسكر وهو جالس بين صحبه وخُلّانِه من قواد الجيش ورؤسائه ، يُغنيهم ويُطرِبُهم ، فأرقُص أمامهم رَقْصَ الطائر المذبوح ونوادى يتمزق لوعةً وأسى ، لا أَهِنُ ولا أَفترُ ولا أستعفِى ولا أعتذر ، مخافَةَ أن يرى سيِّدى الجندىُّ ذلك منى فيعاقبنى ؛ فقد كان يُحاسبنى على الضَّعف والعجز والحياء والخجل والتَّلوُّم (١) والاحتشام ، مُحاسَبَةَ القاضى المجرمين على الذنوب والآثام ؛ فاعذِرْنى يا سيِّدى

---

(١) التلوم : البطء .

إن بكيتُ لحظة بين يديك فإنى وإن كنت وُلدت فى مهد الشقاء ، ونشأتُ فى حِجر البؤس والآلام ، فقد كانت تلك الأيامُ التى قضيتها فى ذلك المعسكر أو فى بُؤْرَةِ السُقوط والعار ، أشقى أيامى وأعظمَها شدّةً وبؤسا ، لا أذكرُها إلا بكيتُ لذِكراها وأسبلتُ ردائى على وجهى حياء منها وخجلا .

على أنى أحمَدُ الله إليك ، فقد بسطْتَ إلىَّ يَدَ رحمتك وإحسانك ، واستنقَذْتَنى من مخالب ذلك الشقاء أيْأَسَ ما كنتُ من الخلاص منه ؛ أحْسَنَ اللهُ إليك وهوَّنَ عليك همومَك وآلامك .

وكانت تتكلمُ وقسطنطينُ لاهٍ عنها بقصةِ ذلك الجاسوس ، لا يكادُ يشعر بشىء مما حَوله ، ثم التفت إليها وقال لها : إذن هو جاسوسٌ متنكّرٌ ! قالت : ذلك ما أعتقدُه يا مولاى ولا أرتابُ فيه . فظل يدور فى الغرفة دَوْرَةَ الهائم الْمُخْتَبِلِ (١) لا يهدأُ ولا يتريَّثُ ، وظلَّ على ذلك ساعة ثم انقضَّ بغتةً على ردائه فاختطفه وخرج من الغرفة مسرعا ، فأدركتْه ميلتزا وتعلقتْ بأطراف ثوبه وقالت له : أين تريدُ يا مولاى ؟ قال : أريد أن أقبِضَ على ذلك الجاسوسِ المجرم وأرفَعَ أمرَه إلى الأمير ليرى رأيه فيه . قالت : إنّ القيثارةَ قد انقطع صوتها ، ولا بدّ أن يكون قد ذهب لسبيله ، فدَعْهُ وشأنَه . قال : لا بدّ لى من أن أكشف أمره على كل حال حتى لا يعودَ إلى هذا المكان مرة أخرى . قالت : أَضرَعُ إليك

---

(١) المختبل : الذى ذهب عقله .

ياسيدى أن تملك نفسك وأن تهدأ لحظة واحدة حتى أُتمم لك بقيَّة حديثى .

فجَمَدَ فى مكانه وقال لها : ماذا عِندك بعد ذلك ؟ قالت : إن كنتَ تريدُ أن ترفعَ أمر الرجل إلى أبيك ليعرفَ حقيقتَه فاعلم أنه يعرِفه حقَّ المعرفة ، بل هو أعلمُ به منى ومنك ! فثار ثائره وصرخ فى وجهها قائلا : ماذا تقولين أيتها الفتاة ؟ وجرَّد سيفَه من غِمْدِهِ وأَهْوَى به عليها ليقتُلَها ، فاستَخْذَتْ له (١) ومدّت إليه عُنُقَها وقالت : اضرب يامولاى ، فَدَمى حلالٌ لك ، وإن شئتَ فاستَمِع منى كَلِمةً واحدة قبل أن تفعل ، فإنّ شرفك وشرفَ بيتك رَهْنٌ بما أقول ! فجَمَدَ السيف فى يده وظلَّ شاخصاً إليها ينظرُ كلمتَها ، فقالت : نعم ، قد تم الاتفاقُ بين أبيك وزوجتِه وذلك الجاسوسِ التركى على أن يُخْلِىَ أبوك تخومَ المملكةِ من حُرّاسها هذه الليلة ، لتتمكن الجيُوش التركية من اجتيازها ؛ فإن فَعَل أصبح فى الغدِ سيِّد البلقان ومليكَها ، قال : ومِن أين لك عِلْمُ ذلك ؟ قالت : قد سمعتُ الحديث الذى دار بينهم فى هذا الشأن ، ورأيتُ ورقة منشورة بين أيديهم يقرأونها ويتداوَلُونها ؛ وما أحْسَبُها إلا وثيقةَ العهد الذى تعاهدوا عليه ؛ فإن كنتَ لاتزال فى رَيْبٍ من ذلك فدونَكَ الغُرْفَةَ المجاورةَ لغرفة الأميرة فادخلْها برِفق وهُدوء ، وَضَعْ أُذُنَك على خَصَاص (٢) البابِ المغلَق بينهما ، كما صنعتُ أنا منذ ساعة ، تَسمعْ مايتحدّثون به ، ولك

---

(١) استخذى : خضع .

(٢) ثقب الباب

حُكمُك بعد ذلك .

فَشَعَرَ قسطنطينُ أنّ الأرض الفضاء تدور به ؛ وأنّ الشمس قد لَبِسَتْ قِناعَها الأسود فما يرى شُعاعا من أشعّتِها - وأن فرائصَه ترتعدُ وتَصْطَكُّ فما تكاد تحملُه ؛ فتراجَعَ إلى جدارٍ قائم وراءه فأسند ظهره إليه حتى هدأ قليلا . ثم مشى يتحامَلُ على نفسه حتى دخل الغرفة التى وصفتُها ميلتزا ، ومشى إلى الباب الموصَد بين الغرفتين ووقف بجانبه يَتَسمَّعُ فلم يسمع شيئا ، حتى ظنّ الغرفةَ خالية ، ثم سمع صوتَ أبيه فانتبه وتجمّع للإصغاء ، فإذا هو يقول لزوجتِه بصوتٍ خافتٍ مُتَهَدِّج (١) : هل سافر الرجل ؟ قالت : نعم ياسيدى ! وما أحسَبُ إلا أنه تجاوز أطراف التخومِ الساعة ، فإن جَوَادَه أفْرَهُ الجِياد (٢) وأسرعُها . فَصَمَتَ ولم يقل شيئا ، فدنَتْ منه وقالت له بِنَغْمة حُلوة ساحرة : ماهذا الاصفِرارُ الذى يكسو وجهَك ياميشيل ؟ وما هذه الكآبةُ السوداء التى تَتَدَجَّى فى عَينيك (٣) ؟ فهل أنت نادمٌ على ما كان ؟ قال : لا ، ولكنى أخشى الفَشَل (٤) ، قالت : لا أعرفُ للفشل بابا يُمكنُه أن يدخل عليك منه ، فأنت قائدُ الجيش وصاحبُ الأمر والنهى فيه ، فإن كان كلُّ ما يَعْنيك من الأمر ألا تظهرَ يدُك فى هذا العمل فَقُم الساعةَ والْبَسْ ثيابَ

---

(١) صوت متهدج : متقطع مرتعش .
(٢) أكرم الجياد .
(٣) الدجى : الظلام . ويتدجى : يظلم .
(٤) يريد من معنى الفشل هنا : الإخفاق والخيبة .

أحد الحرّاس واذهب إلى مكان الحارس الأوّل القائم على حراسةِ الرابية الأولى ، وارْقُبْهُ حتى تأتىَ ساعة انصرافِه واستبدالِه - فأظهر له كأنك الحارسُ الذى يَخْلُفُه فى مكانِه واهتِفْ له بكلمةِ السرّ التى بَثَثْتَها الليلةَ بين جنودك - وحُرّاسُ المداولة كثيرون لايكاد يعرِفُ بعضهم بعضا - فإذا انصرف لشأنه أخذتَ مكانه من حيث لا يعلمُ من أمرك شيئا ، حتى إذا رأيت الجيش التركىّ مُقبلا فى منتصفِ الليل ، وعلمت أنه قد أشرف على التّخوم ومَلك رأس الطريق إلى « فيدين » عُدْتَ أدراجَك إلى القصر متنكراً كما ذهبت لم يشعر بك أحد فى ذهابك أو إيابك ، وكأننا قد فوجئْنا بهذه النازلة مفاجأة لانملكُ معها للأمر دَفْعاً ولا ردًّا .

فطارت نفسُ قسطنطينَ شَعَاعا (١) عند سماع هذه الكلمات ، وكاد يصرخُ صرخة عُظمى يرتجُّ بها القصر وأرجاؤه ؛ لولا أنه طمعَ فى أن يسمع من أبيه كلمةَ شرف وإباء تَهْدِمُ صَرْحَ تلك الخيانةِ الذى تبنيه يدُ زوجته ، فأرهفَ أذنيه ليسمع جوابه ، فسمعه يقول بنَغْمة الفارح المغتبط ، بعد كلامٍ كثير لم يفهمه : نعَم ، هذا هو الرأى السديد ، ولقد أمِنْتُ الآن كلَّ شىء ، فأْتينى بلباس الحارس ، فقد عزمت ولا مردَّ

---

(١) يقال : طارت نفسه شعاعاً أى تفرقت قطعا ، كأنها تبعثرت خواطره طائرة فلا يكاد يجتمع رأيه على أمر .

لعزمى ، فتهافتتْ على عُنقه وقبَّلته قبلة طويلة رنّ صوتُها فى أرجاء الغرفة ، ثم ذهبت لشأنها .

فما سمع قسطنطين هذه الكلمةَ حتى أظلمتْ عيناه ، واكفهرّ وجهه ، وتداركتْ ضرباتُ قلبه ، وحاول أن يصيح فخانه صوته ، فسقط مغشيا عليه ، ولكن بين ذراعَىْ ميلتزا ، لأنها كانت واقفة وراءه تَرْصُدُه من حيث لا يشعر بمكانها ، حتى إذا هَوَى تلقَّتْه بين ذراعَيْها وقادته إلى غرفتها .

الجريمة

جَثم الليلُ فى بَجْثَمِه ونشر أجنحتَه السوداء على الكون بأجمعه ، فهَجَعَ تحت ظِلالها الأحياءُ جميعاً من بَشَرٍ وحيوان . ولم يبقَ ساهراً وسط هذا السُّكونِ المخيم إلا عينا القائد برانكوميرَ فى شِعْب تراجان ، يُديرهما هاهنا وهاهنا ، فينظرُ بهما تارةً أمامه وأُخرى وراءه ، ليرى هل يَرْصُدُه أحد أو يتأثَّرُ حركاتِه وأعمالَه ؟ ويُقَلِّبُهما أحياناً فى صفحة السماء فيرى عيونَ النُّجوم مُحْدِقَةً فيه ، فيخيّلُ إليه أنها عُيون الله ناظرةً إليه نظراتِ الوعيد والتهديد ، وكأنّ صائحاً يصيحُ به من جوانب الملإ الأعلى : آصنع ما تشاء أيها الرجل الخائن ، واكتُم عملك عن عُيون الناس جميعاً ، فإنى ناظرٌ إليك ومسجِّلٌ عليك هذه الجناية العظمى التى تجْنيها على وطنِك وقومِك ! فيتضاءل ويتصاغَرُ ، ويمرُّ بخاطره قولُ أمّه له فى عهد طُفولته فيما كانت تُمليه عليه من آداب الحكماء وأقوالهم : إن كواكب السماء ونجومَها تشهد بين يدى الله على جميع جرائم البشر التى ليس لها شُهود ! ، ثم لا يلبَثُ أن يُسَرِّىَ عن نفسه ويذهبَ به خيالُه إلى المُلك وعَرشِه ، وتاجِه وصَوْلَجانه ، وعِزّه ومَجْده : ثم يُلقى نظرة عامة على الجبال المحيطة به ، والسُّهول المنبسِطةِ من حَوله ، والأنهار المائجة بأشعة النجوم ولألائها ، فيقول : غداً تصبح هذه الجزيرةُ كلُّها جزيرتى ، وأهلُها

خَدَمى وحشمى ، يأتمرون بأمرى ، ويُذْعِنُون لقوتى وسُلطانى وغداً يتلألأ التاج على جبين بازيليد ، فتُصبحُ أسعدَ نساء العالم جمعاء ، وأُصبِح بسعادتها أسعدَ رجاله ، ثم يُخَيَّل إليه كأنه يرى بازيليدَ ماثلة بين يديه تنظر إليه نظراتها الساحرةَ الفاتنة ، فيمدُّ ذراعيه لاستقبالها ويناجيها قائلا :

إننى لا أزال على العهد الذى عاهدتُكِ عليه مذ فارقْتُك حتى الساعة ، لم أندم ولم أتردد ، ولا مرَّ بخاطرى أن أُخْفِلَ بشىء فى العالم سوى أن أُنيلَك البُغْيَةَ التى تَبتغينها .

إن القُبلة التى وضعتِها على شفتىَّ منذ ساعة قد أثلجت صدرى وسكَّنت جميعَ مخاوفى ووساوسى ، فأنا أُقدم على الجريمة إقدام الهادئ المطمئن ، لا أشعر بثقلها ، ولا أُفكر فى نتائجها ، بل لا أشعر أنها جريمةٌ يخفق لها قلبى خَفْقَةَ الأسف والندم .

لقد أقسمتُ لك على الوفاء بالعهد ، ولا بدَّ لى من أن أَبَرَّ بقَسَمى ، ولو كنتُ لك على حرمان نفسى منك ـ وأنتِ الحياة التى لا حياة لى بدونها ـ لاستحْيَيْتُكِ أن أَحْنثَ فى قسمى أو أن أَخيس بعهدى (١) .

أقسمتُ لك أن أخون وطنى وهأنذا أخونه كما أردتِ راضياً مستسلماً لا أَنْدُبُهُ ولا أَرْثِى له ، فرِضاك هو الوطنُ كلُّه ، بل هو الدنيا بأجمعها ؛ فليذهب الوطن كله ، ولْيَفْنَ العالَمُ بأسرِه ، فأنتِ لى كل شىء فيهما .

---

(١) خاس بعهده يخيس : غدر ونكث .

وكان يحدث نفسه بهذا الحديث وهو جالس على رابية مرتفعة فى شِعب « تراجان » تحت القَوس الرومانى بجانب هضبة عالية من الحطب أُعِدَّتْ للإحراق إنذاراً للجيش بالعدو عند زَحْفه ، وكانت الهضَبات المحيطة بتلك الرابية أو المبعثَرة من حَولها سوداءَ قائمة تتراءى فى ظُلمة الليل ووحشَته فى صُوَر وحُوش مخيفة هائلة فاغِرَةٍ أفواهَها ، أو مُقْعِيَةٍ على أذنابها (١) ، أو متوثِّبةٍ للهجوم ؛ فلا يقعُ نظره عليها حتى يطير قلبُه شَعاعا ، فيسرع إلى الاغتماض فلا يفارقه خيالُها إلا بعد حين .

وما كان الرجل جباناً ولا رِعْدِيداً ، فهو بطل البلقان وحاميه وسيدُ من أنجبت به ميادينُ قتاله وساحاتُ نزاله . . . ولكنها الجريمةُ تنتزعُ قلبَ المجرم من بين جنبيه ، وتُغْشِى على عينيه البصيرتين فيُصبح بلا قلب وبلا نظر ، يرى ما لايراه الناس ، ويخشى ما لايَخْشَوْنه ؛ فهو لا يخاف الوحوشَ والهَوَامَّ (٢) والجنَّ والشياطينَ والصخور والأحجار ، بل يخاف جرائمه وآثامه !

وإنه لكذلك إذ خُيِّل إليه أنّ إحداها تتحرك من مكانها وتَتَحَلْحَلُ تَحلْحُلَ الليث المتوثب (٣) فاستُطير قلبُه فَرَقاً ورُعْبا ، وحاول أن يتَّهم نظرَه ويَسْتَرِيبَ به ، فلم يستطع ؛ لأنه مالبث أن رأى فى ذِرْوة تلك الهضبة رأساً

---

(١) مقعية على أذنابها : جالسة مثل جلوس الكلاب .

(٢) الهوام : دواب الأرض كالحيات ونحوها .

(٣) تحلحل : تحرك للانتقال من موضعه .

يتحرك وينظرُ إليه بعينين متقدتين ، فصرخ صرخة الكلبِ الجبانِ الذى يَنْبحُ الشَّبَحَ المقبِل نحوه ، لا جُرْأَةً وإقداما ، بل جُبناً وفَرَقا ؛ وقال : مَن هُناك ؟ فانحدر الشبحُ إليه من أعلى الهضبة وقال له بصوت خَشِن أَجَشّ : لاتَرْتَعْ يا أبتِ [١] فأنا ولدك قسطنطين . فوَثَبَ من مكانه وثْبةَ الملسوع ، وقال له بصوت متهدِّجٍ مختنِق : ما الذى جاء بك إلى هنا ، ومن أنبأك أنى فى هذا المكان ؟ قال له : وأنت ما الذى جاء بك إلى هنا يا أبت وماذا تُريدُ أن تفعل ؟ إننى أسألك عن مثلِ ما تسألنى عنه ! فأسقطَ فى يده [٢] وطار طائرُ عقله ، وأَحَسَّ بالخطر المقبِل ، إلا أنه تجلَّد واستمسك وقال بلهجة الآمِرِ المسيطِر : وما سؤالُك عن مثل هذا أيها الفتى الجرىء ؟ وما شأنُك بى وبما أفعل ؟ وكيف فارقت حِصْنَك فى هذه الساعةِ من الليل ؟ ومن أذنك بذلك ؟ [٣] قال : لم أستأذن فى ذلك أحداً غيرَ واجبى ، إننى أعلم كلَّ شىء يا أبت ، وأعلم أنك ماجئتَ إلى هذا المكان إلا لترتكبَ أفظعَ جريمةٍ يرتكبُها إنسان فى العالم ! فصاح برانكوميرُ وهو يتميزُ غيظاً وحَنَقا [٤] : كذبتَ أيها الغلامُ الوقح واجترأت على ما لم يجترئ عليه أحدٌ من قبلك ! عُد الآن إلى حصنك ، ولا تَبْقَ بعد صدور أمرى إليك لحظة واحدة ، فإن حاولتنى فى ذلك

---

(١) ارتاع يرتاع : خاف . لاترتع : لاتخف .

(٢) أسقط فى يده : تحير فلم يدر ماذا يفعل .

(٣) الفصيح : ومن أذن لك فى ذلك .

(٤) يتميز غيظا : يتقطع من الغيظ .

فأنت أعلم بما يكون ؛ إنك لاتفهمُ شيئاً من أسرارى وخُوَيَّصاتِ نفسى (١) ، وليس لك أن تسألنى عنها لأنك جنديٌّ والجنديُّ لايسأ ُ قائده ، بل يأتمر بأمره ولو كان الموتَ الزؤام ، عُد إلى مخفرِك وتولَّ حراستَه بنفسك ، ولا تأذن لجفْنك بالغمْض لحظة واحدة ، وسأحدّثك غداً فى هـذا الشأن حديثاً طويلا تعلمُ منه كلَّ شىء .

فتضعضع قسطنطينُ أمام هذه اللهجة الرزينةِ الهادئة ، وجَثَا على ركبتيه بين يديه (٢) وقال له : عفواً يا أبتِ ، فقد أخطأتُ فى سوء ظنى بك ، فأنت أشرفُ من أن تضعَ نفسك حيث أرادوا أن يضعوك ، وما أحسب كلمتك التى قلتها للأميرة منذ حين فى تلك الْخَلْوَةِ الرهيبة ، إلا كلمةَ مَزْح ودُعابة أردتَ بها مداراتَها وملايَنَتَها ، أو الْهُزْءَ والسُّخْرِيةَ بهـا ، حتى إذا فَصَلتْ عنك وخلا بك مكانُك مَحَوْتَ بظهرِ يدك عن فمك تلك القبلةَ الأثيمة التى ختمتَ بها ذلك العهدَ الأثيم ، ثم قلت لهـا فى نفسك : إننى قد عاهدت الله أيتها المرأة البلْهاء قبل أن أعاهدَك على أن أكون أميناً لوطنى وفيًّا له ، فلا أحفِلُ بعهدٍ غيرِ هذا العهد ، ولا بيمينٍ غير تلك اليمين ، ثم خفْتَ أن تكون قد استرابت بك (٣) أو مرت بخاطرها خَلْجَةُ شك فى أمرك فأخذتْ للأمر حَيْطتَها من طريقٍ غير طريقك ، فجئتَ بنفسك لتتولى حراسةَ التُّخوم

---

(١) الخويصة : تصغير الخاصة ، يعنى خصائصه الدقيقة .

(٢) جثا يجثو : جلس بين يدى من هو أعلى منه جلسة التضرع والاسترحام .

(٣) داخلتها الريبة .

وحمايتها ، حتى إذا شعرْتَ بسواد الجيش التركىّ مُقْبلا أشعلتَ النيران إنذاراً لجيشك بالخطر الداهم وخيَّبْتَ آمال أعدائك فيما يَكيدون لك ولقومك .

أليس كذلك يا أبتِ ؟ نعم ، إنه كذلك بلا شك ولا ريب ، فأشعلِ النارَ الآن ودعْها تسطع فى هـذا الفضاء الواسع ، وتُبَدِّد بلألائها هذه الظُّلماتِ المتكاثفة ، فإنى أشعُرُ بسواد مقبِل من بعيد يتقدّم شيئاً فشيئا ، وما أحسَبُه إلا فيالقَ العدوّ وجيوشَه ؛ أُنظر يا أبت واخترِق بنظرك هذا الفضاءَ الشاسع ، ألا ترى تحت خط الأُفق أشباحاً تتحرّك وتتقدّم ؟ إنه ليخيَّلُ إلىَّ أنها أعلام الجيوش التركية تخفُق فى أجوائها ، وربما لا تمضى ساعة أو بعضُ ساعة حتى تكون قد وصلتْ إلى هنا !

أسرِع بإشعال النار ، أو عُد أنت إلى قصرك وخذ لنفسك راحتَها فيه ودَعْنى أتولّى عنك إشعالَها ، فالخطرُ مُوشكٌ أن يقع ! ما من ذلك بدّ !

مالى أراك جامداً يا أبت ؟ وما هذا الذهولُ الذى يتولّاك ؟ أشعل النار أو تنَحَّ عن طريق لأُشْعِلها ، أَشعلها فالوقت أضيقُ من التأمل والتفكير !

فرفع برانكومير رأسه ونظر إلى ولده نظرة جامدة وقال له : إذن أنت تتَّهِمُنى يا قسطنطينُ وترتابُ بى ؛ ما أشقانى وأسوأَ حظى ، ولدى وفِلْذَةُ كَبِدى ووارثُ اسمى ولقبى يتَّهِمُنى ويتجسَّس علىَّ ويقف وراءَ الأبواب ينظرُ من خصائصها [1] ليسمعَ مايدور بينى وبين زوجى فى خَلوتى ! فيا لَلْعار

---

(١) ثقوبها .

ويا لَلشَّقاء ! أيها الولدُ العاق المِسكين ! اذهب لشأنك فإنى أريد أن أبقى هُنا الليلةَ وحدى ، ولا تجازف بمخالفة أمر قائدٍ تعوَّدَ أن يأمر فيُطاع ، وليس من شأن مثلِه أن يصبرَ لحظةً واحدة على مخالفةِ أمره ، إننى سأبقى هنا وحدى وسأُشعل النـار بنفسى عند ما أريدُ إشعالَها ، فلا حاجة بى إلى مَشورتك ومعونتك ؛ عد أدراجك إلى حصنك ولا تُضِفْ إلى جريمة التجسس على أبيك جريمةَ معاندته ومخالفة أمره ، واعلم أنك الآن جندىٌ أمام قائده ، لا ولدٌ بين يَدَىْ أبيه .

فأنّ قسطنطين وتأوّه آهةً طويلة وقال : وارْحَمتاهُ لى ولك يا أبت ! إن الأمر صحيحٌ لاريبَ فيه ، والجريمة على وَشْكِ الوُقوع (١) .

ثم صَمَتَ صمتاً طويلا لا تَطْرِفُ له فيه عين ، ولا تنبعِثُ له جارحة ؛ ثم انتفض فجأة وصاح بلهجةٍ شديدةٍ صارمة : أبى ، إننى سأبقى هنا !

فدهِش ميشيل لعناده وصلابته وقال له : ما أُرانى الآن إلا أمام عَدُوٍّ لَدُود لا ولدٍ بارٍّ مطيع ! قال : لا يا أبت ، بل أمامَ ولد بارّ مطيع ، ولولا ذلك ماجَشَّمتُ نفسى مَشَقَّةَ المجىء إليك فى هذه الساعة من الليل ، ولا وقفتُ أمامك هذا الموقفَ الخطر المميت ؛ إننى لم أفعل ذلك من أجل نفسى ، بل من أجلك ومن أجل شرفك . إننى أُحبك كما أُحب وطنى ، وما على وجه الأرض شىءٌ أحبَّ إلىَّ منكما ، وكما أتمنى له أن يعيش حرًّا مستقلا ، أتمنى لك أن

(١) الأفصح أن يقال : والجريمة توشك أن تقع .

تعيش شريفاً عظيما ، فإذا ضاع وطنى وكان ضياعُه على يدك أنت فقدْتُ فى ساعةٍ واحدة جميعَ ما أُحب فى هـذه الحياة ، فارحم ولدَك المسكين الذى لا يزال يُضمر لك فى قلبه حتى الساعةِ ذلك الحبَّ القديمَ الذى تَعرفه ، واستَبْقِ له تلك السعادةَ التى لم يبق له فى الحياة سعادة غيرَها ؛ تَنَحَّ قليلا عن طريق وأْذَنْ لى أن أصل إلى هذه الرابية لأشعل نارَها فيراها حُرّاسُ الروابى جميعاً فيُشعلوا نيرانهم ، فينهضَ الجيش للدفاع عن الوطن ؛ فقد أَزِفَت الساعةُ ولم يبق سبيلٌ للأناة والتفكير .

ثم اندفع إلى مكان الرابية مسرعا ؛ فاعترضه أبوه ووقف فى وجهه وقفةَ الصخرةِ العاتية فى وجه الريح العاصف ، وقال له : لا آذَنُ لك بالتقدم خطوة واحدة . ودون ماتريدُ الموتُ الزؤام !

فطاش عقلُ قسطنطينَ وجُنّ جُنونه وقال له : احذر يا أبت ! فإن فى هذه السماء المشْرقة علينا بنجومها وكواكبها إلهاً ينتقم من الظالمين ، ويُجازى الخائنين بخيانتهم شرَّ الجزاء ، وما أنت بناجٍ من عِقابه ، ولا مُفْلِت من جزائه ، لقد حدّثْتنى نفسى فى تلك الساعة الهائلةِ التى سمعتكَ فيها تؤامِرُ على وطنِك وأُمتك ، بأفظعِ ماتُحَدِّثُ به نفسٌ صاحبَها ، وكنت على وَشْكِ أن أرفع أمرك إلى الملك أنت وزَوْجِك ، وأكشفَ له دَخِيلَةَ أمرِكما ، فلم أفعل ، لأنى ضَنَنْتُ بك على الموت الدنىء الذى يموته الخائنون المجرمون أمثالك ، وأشفقتُ على ذلك الشرفِ العظيم الذى بلغ فى عُلُوّه مَناطَ السماكِ الأعلى أن يُصبحَ

مُهاناً مُذالا (١) تدوسُه الأقدام ، وتَطَؤه النّعال ، وكَرِهْتُ أن يمرَّ السابلة من رعاع الناس وغوغائهم على قبرِك بعد موتك فيَبْصُقُوا عليه كأنما يبصقون على قبر الشيطان ، وربما نَبَشُوا عن جُثَّتك ، تَشَفِّياً منك وانتقاما ، فأخرجوها من قبرها ، وأسلموها إلى جَوارحِ الطير وكواسرِ الوحش تمزّق أشلاءها وتُبعثر عظامَها .

أشفقتُ عليك من كل هذا ، وأشفقتُ على نفسى أن يرانى الناس فى طريق فيُشيروا إلىَّ بأصابعهم ويقولوا : هذا هو الولد السافلُ الدنىء الذى وَشى بأبيه وأوْرَدَهُ مَوْرِدَ التَّهلُكة ؛ فبئس الولدُ ولَبِئس الوالد ، ولا يَلِدُ الخونة المجرمون غيرُ الأدنياء الساقطين ! فنَهْنَهت نفسى وملكْت عليها زِمامَها وقلبى يذوب حزناً ولَوعة ، وقلت : لعلى أستطيعُ أن أتدارك الأمر من طريقٍ غير تلك الطريق ، وأن أتمكنَ فى آن واحد من إنقاذ أبى وإنقاذ وطنى من حيث لا أخسَرُ واحداً منهما فى سبيل الآخر ، فجئتُ وقلبى ممتلئ أملا ورجاء .

أما الآن وقد يئستُ من كل شىء فإنى أكاد أشعُر بالندم على ضَياع تلك الفرصة التى ملكتُها ساعةً من الزمان فسرَّحتُها ولم أنتفع بها ، وكأنّ صوتاً خفيا يهتف بى من أعماق قلبى : إنك قد أشفقت على نفسك مرة وعلى أبيك أخرى ولم يخطر ببالك لحظةً واحدة أن تُشفق على وطنك وقومِك .

فأسألك مرة أخرى ياسيدى ، وربما كانت هى المرةَ الأخيرة ، أن تتنحَّى

---

(١) مذالا : ممتهنا .

عن طريق ، فإننى قد عزمتُ عزما لامرَدَّ له أن أقتحم هذه الرابيةَ لأضرِم نارها رَضِيتَ أم أَبَيْت ، سقطت السماءُ على الأرض أم بقيتْ فى مكانها !

فأطرقَ برانكومير لحظةً ذهبت به فيها الهموم والأفكار كلَّ مذهَب . ثم رفع رأسه فإذا دمعةٌ كبيرة تترقرقُ فى عينيه ، ونظر إلى ولده نظرةَ عَتْبٍ وتأنيب ، وقال له : نَعَمَ يابنىّ ! إنك قد أخطأتَ خطأ عظيما إذْ أَضَعْتَ الفرصةَ العظيمة التى لاحت لك ، وقد كان جديراً بك أن تفترِصَها ولا تُسَرِّحَها وأن تُلقىَ فى عنُق أبيك فى تلك الساعة التى رابك فيها من أمرِه ما رابك ، غُلا ثقيلا ، تقُودُه به إلى حضرةِ الملك متّهِماً إياه بجريمة الخيانة الكبرى ، ليأمرَ بقتله فتمتّع نظرَك برؤيته مصلوباً على باب المدينة والجماهيرُ من حوله يبصقون على وجهه ويَصْفَعُون قَذَالَه (١) ويَرْجُمُونه بالحجارة على مرأى من ضُباطه وجنوده وأسرتِه وأصدقائه ، وربما اشترك هؤلاء جميعاً معهم فى عملهم .

نعم إنها فُرصةٌ ثمينة جدا قد أَضَعْتَها بتردُّدِك وتحيُّرِك ، وقد كان جديراً بك أن تُقْدم إقدام العازم المصمِّم كما كان يفعل أبوك لو كان فى مكانك ، فقد عوَّدْتُ نفسى أننى إذا عزمت على أمر لا أتردد فيه ولا أتريَّث ، وقد عزمتُ الآن على ألا أُشعلَ هذه النار فلا أُشعلُها ولا آذنُ لك بإشعالها ، بل لا آذَنُ لك بالتحرُّك من مكانك خطوةً واحدة !

---

(١) قفاه .

فوقف قسطنطينُ حائراً ملتاعاً يترجحُ بين اللهفِ على وطنه الضائع والإشفاقِ على أبيه المسكين ، لا يستطيعُ أن يخونَ وطنه الذى نبتَ فى تربته وعاش بين أرضه وسمائه ، ولا أن يَعُقّ أباه الذى أبرزه إلى الوجود ووهَبه نعمة الحياة التى يَنْعَمُ بها ؛ فأسند رأسه إلى صخرةٍ كانت بجانبه حائراً مُتَضَعْضِعاً تتواردُ فى رأسه الخواطر والأفكار يُصارعُ بعضُها بعضاً ويشتدُّ بعضها فى أثر بعض ، حتى بلغ منه الإعياء مبلغَه فنظر إلى أبيه نظرة منكسرة حائرة تَفيض حُزناً ويأسا ، وقال :

أيُرضيك ياميشيل برانكومير ، يابطلَ البلقانِ وحاميها وأشرفَ من أنجبتْ به أصلابُ رجالِها وأرحامُ نسائها ، أن يملِكَ العدوُّ علينا هذه البلادَ العزيزة الكريمة فيقتُلَ أبناءها ، ويستحلَّ حُرُماتِها ، ويُنكِّسَ صُلْبانَها ، ويَهْدِمَ صوامعَها ومعابِدَها ، ويُخْرِسَ فيها كلَّ صوت غيرِ صوت الأذان على ذرَى المنائر ؟ قال : نعم يُرضينى ذلك لأننى أحسنْتُ إليها فكفرتْ بنعمتى وجازتْنى شرَّ الجزاءِ على صنيعى ! قال : إن لم تفعلْ ذلك من أجلها فافعلْه من أجلِ ربِّك ، قال : أىَّ ربٍّ تُريد ؟ إننى لا أفعل شيئاً من أجلِه ، فهو مُمالِئٌ مُداج لا يُحبُّ إلا قَساوِسَتَهُ وكُهّانَه ، ولا يرى رءوساً تَصلح للتيجان غيرَ رءوسهم الصغيرةِ الصَّلْعاء ، ولكننى سأنتزع بالرغم منه ذلك التاجَ من ذلك الرأسِ الذى توَّجه به وأَضعُه على رأسى . قال : ولكنك تعلمُ يا أبت أن التاجَ الذى يتناولُه مُتناوِلُه من يد عدوِّه ليس بتاجٍ شريف . قال : ولكنه تاجٌ على

كلَّ حال ! قال : ألا تخاف أن يَثْقُلَ يوماً على رأسك فيهبِط إلى عُنقك ويستحيلَ إلى طَوق حديدى يخنُقك ويَقْضى عليك ؟ قال : إنك تهينُنى يا قسطنطين وتُهدِّدُنى ؛ ولقد بلغْتَ بوقاحتك الغايةَ التى لاغايةَ وراءها ، فتَجمَّل قليلا ولا تَنْسَ أنك إنما تخاطب أباك ! قال : عفواً يا أبت وغَفْرا ، فلقد بلغ بى اليأسُ مَبْلَغه حتى أصبحتُ لا أفقه ما أقول !

ثم دنا منه وأمسك بيده وأنشأ يُخاطبه بصوتٍ ضعيف متهافِتٍ ويقول :

عُدْ إلى نفسك لحظةً واحدة يا أبت ، وراجِعْ فهرسَ تاريخك الشريف ، واذكر تلك الأيامَ المَجيدة التى أبْلَيْتَ فيها فى الدفاع عن وطنك وقومك بلاءً سجَّله لك التاريخُ فى صفحاته البيضاءِ بأقلامِه الذهبية ، وتلك الوقائعَ الحربيةَ الهائلة التى كنتَ تستقبلُ فيها الموت استقبالَ العروس ابتسامات عَروسِه الحسناء ليلةَ زِفافها ، وتضحكُ للهَوْلِ فيها ضَحِكَ الزَّهر لقطراتِ الندى ، والنَّبْت لأشعةِ الشمس ، ثم تعودُ منها منصوراً مظفَّراً يستقبلُك نساءُ القرى وفَتَياتُها فى كل طريق مررت به بدُفُوفهنَ وعِيدانِهنَ يغنِّينك ويرقصْنَ بين يديك ، ويَرْتَشِفْنَ قطراتِ الدماء من كؤوس جراحاتِك ، وينثرن الأزهارَ تحت قدميك ، ويُنادينك باسم المخلِّصِ العظيم ، وخليفة المَسيح فى الأرض .

اذكر تلك الأعلامَ الوطنيةَ التى تخفقُ على أبواب المدينة وأسوارِها ، وترَنُّحها طَرَباً وسروراً عند رؤيتك ، وترامِيَها على قدميك كلما مررتَ بها كأنها تُحاول تقبيلَهما ولثْمَهما ؛ وآخْشَ إن مررتَ بها بعد اليوم أن تُشِيحَ

بوجهها عنك احتقاراً وازدراء ، وتَضُمَّ أطرافَها إلى نفسها ترفُّعاً وإباء ، حتى لا تَلْبِس جِسْمك ولا تخفق فوق رأسك .

لا تَبِعْ أُمَّتَك يا أبت بِعرَضٍ تافِهٍ من أعراض الحياة ، فالتاجُ الذى يتناوله صاحبُه من يدِ عدُوِّه ليس بتاجِ المُلْك ؛ إنما هو قَلَنْسوَة الإعدام .

كيف يَهْنَؤُكَ ذلك المُلْكُ وأنت ترى أُمتك المسكينةَ راسفة فى قُيود الذل والاستعباد تبكى وتستصرخ ولا مُنجِدَ لها ولا مُعين ، وتَئِنُّ فى يد عدوّها القاهرِ أنينَ المُحْتَضَر المُشْرِف ولا من يسمع أنينَها ، أو يُصغى إلى شَكاتها .

كيف يَهْنَؤُكَ ذلك العيش وأنت ترى أبناء وطنِك أُسارَى أذِلاء فى قبضة أعدائهم يسوقونهم بين أيديهم سَوْقَ الجزَّار ماشيته إلى الذَّبْح . فإن خَفَقَ قلبُك خَفْقَةَ الرحمةِ بهم أو العطف عليهم لا تستطيعُ أن تَمُدَّ يدَك لمعونتهم وإنقاذهم ، لأنك قد بِعْتَهُم ونَفَضْت يدك منهم فلا سبيلَ لك إليهم بعد ذلك .

اذكر يا أبت تلك الأيامَ التى لَبِثَ فيها هذا الشعبُ المسكين على يد هؤلاء القوم الظالمين مالم يَلْقَ شعبٌ فى الأرض على يد فاتح أو مغتصِب ، أيامَ كنا غُرباء فى أوطاننا ، أذِلَّاء فى دِيارِنا ، نمشى فيها مِشْيَةَ الخائف المذعور ، ونَنْتَفِضُ انتفاضةَ الهارب المتنكر لا نعلمُ أيسقط الشقاءُ علينا من عَلياء السماء ، أم ينبعثُ إلينا من أعماق الأرض ؟ وهل يخرجُ الخارج منا

من منزلِه ليعودَ إليه أو لِيَرِدَ المَوردَ الذى لارجعة له منه أبدَ الدهر ؟

اذكر أيامَ كانوا يملكون علينا كل شأن من شؤون حياتنا حتى زروعِنا وضُروعنا (١) ، ومياهِ أنهارنا ، وأشعةِ شُموسنا ، فأصبحنا ولا شأنَ لنا فى وطننا إلا كما يكون لعُمال المزرعة ونَواطِيرِها (٢) من الشأن فيها . ويُحْصُون علينا كلَّ حركة من حركاته وكلَّ سَكْنة من سكَناتنا ، حتى نبضاتِ قلوبنا وخواطرِ أفكارنا ، وفلَتَات ألسنتنا ، وأحاديث آمالنا ، ويُحاسبوننا على النظرة واللفتة ، والأنة والزفرة ، والقَوْمَة والقَعْدة ، ثم يَقْضُون فينا بما شاءوا من أَقْضِيَتِهم فلا يَنْحَسِرُ ظلامُ ليلةٍ من الليالى إلا عن مصلوبٍ تَهْفُو به الرياحُ السافيات ، أو طريحٍ مُرْتَهَنٍ فى أعماق السجون !

اذكر أيام كانت كلمة الوطن جريمةً يعاقَبُ عليها قائلُها بحرمانه من ذلك الذى يهتف باسمه (٣) ، وكلمة الدِّين إثماً عظيما يذهبُ بصاحبه إلى أحدِ القَبْرَين ، إما المنشورِ ، وإما المحفور (٤) .

اذكر الدُّموع التى كانت تَذرِفُها الأمهاتُ على أطفالهن المذبوحين فوق حُجورهنّ ، والصَّيْحاتِ التى كانت تَصيحها الزوجاتُ والأخَوات الواقفات

---

(١) الضروع : جمع ضرع ، ويقصد به الماشية الحلوب .

(٢) النواطير : جمع ناطور ، وهو عيدان من قصب أو من خشب تصنع على هيئة الإنسان وتكسى من ثيابه ثم تنصب فى الحقل أو فى الكرم لتذود عنه الطير .

(٣) يعنى النفى .

(٤) يعنى الصلب على أعواد من خشب ، أو الدفن فى التراب !

بأبواب السجون على أزواجهن وإخوتهن ، والزفراتِ التى كان يُصَعِّدُها اليتامى الثاكلون على حافات القبور حنيناً إلى آبائهم وأمهاتهم الهالكين !

اذكر ذلك كله ولا تنْسَه ، لابل أنت تذْكره وتعْرِفه كما تعرفُ نفسَك ، لأنك أنت الذى قَصَصْتَه علينا ومَثَّلْتَهُ لأعيُننا وقُلوبنا ، وأَرَيْتَنَا من ويْلاته ومصائبه مالم نره ، ولَطَالما كنتَ تبكى عند ذكراه بُكاءَ الطفلِ الثاكل أُمَّه ، فنبكى لبكائك ونَنْشجُ لِنَشِيجِك (١) .

ألا تسمعُ هذه الأصواتَ المخيفة التى تحملُها إلينا الرياحُ من ذلك الجانبِ الغربىّ ؟ إنها أصواتُ المَوْتى من جُنودك وأبطالك يَضِجّون فى قبورهم صائحين : واويْلَتاه ، هاهى السماءُ تُوشِكُ أن تنقضَّ على الأرض ! وهاهى أقدامُ العدوّ تدنو من تُخوم البلقان وبِطَاحِه ، وتوشك أن تطأَ بِنِعَالها قبورَنا ، وتُزْعِجَنَا من مراقِدِنا ، وهاهو قائدُنا المحبوب برانكوميرُ العظيمُ الذى سفكْنا دماءنا وبذلْنا أرواحنا فى سبيل ظَفَرِه وانتصاره يُساوِمُ عدوَّنا فى وطننا ، ويُحاولُ أن يبيعَه نساءنا وأولادَنا الذين تركناهم أمانةً فى يده ؛ فنى سبيل الله ماسفكْنا وفى ذِمة القدرِ مابذلْنا !

ألا تسمع هذه الْهَمْهَمَةَ الهابطةَ علينا من آفاق السماء ؟ إنها أصواتُ الملائكة الأبرار يَصيحون ويَصْخَبُون وهم وُقوف بين يدى ربِّهم يقولون له : حتى متى يَسَعُ حِلمُك وأناتُك هذا الخائنَ الغادرَ الذى يبيع أُمّة من أُمم المسيح

---

(١) النشيج : غصة الحلق بالبكاء .

إلى أعدائها وأعداء دينها ، ويُسْلِمُ إليهم أرواحها وأعراضها ؛ فاقضِ اللهمّ فيه قضاءك العادلَ ، واضربْه الضربةَ التى تجعله عبرةً للخائنين ، ومَثَلا فى الغادرين.

إلىَّ أيتها الذكرياتُ القديمة والانتصاراتُ العظيمةُ والأيامُ الغُرُّ المُحَجَّلة(١) المكتوبة بمداد الذهب فى صفحات التاريخ ، مُدِّى إلىَّ يدَ مساعدَتك . وأعينينى على ذلك الرجلِ البائسِ المسكين ، وتَمَثَّلى أمام عينيه لِتُذَكِّرِيه بنفسه وتاريخك عَلَّهُ يحمرُّ خجَلا عند رؤيتك ، ويَقْشعِرُّ بدنه رهبةً من خيال الجريمة التى يريد ارتكابها .

إلىَّ أيتها الفضائلُ الإنسانيةُ والكمالاتُ العالية ، من شَرَفٍ وعِزة ، وترفُّع وإباء ، وأمانةٍ وإخلاص ؛ تعالَيْنَ إلىَّ جميعاً واجْثِين معى بين يديه ، واضْرَعْنَ إليه أن يُنصفكنّ ، ويَعْدِلَ فى أمركنّ ، ولا يَقْضِى للرذيلةِ عليكنّ ، وقلن له : إنك إنْ خذلتَنا ، ونَفَضْتَ يدك منا ، فلن نجِدَ لنا من بعدِك ناصراً ولا مُعيناً .

يا أطفالَ البلقان وصِغارَها الناشئين من فِتْية وفَتَيات أقبلوا إليه جميعا ، واجتمِعوا من حوله ، وتعلَّقوا بأهداب ثوبِه ، واسكبُوا ما تستطيعون أن تسكبوا من دموعكم وشؤونكم(٢) تحت قدمَيه ، وقولوا له : رحمةً بنا أيها الأبُ الرحيمُ والسيدُ الكريم وحَنَاناً علينا ، لا تَكِلْنا إلى أعدائنا وأعداء

---

(١) الفرس الأغر : الذى فى وجهه بياض . والمحجل : الذى فى قوائمه بياض ؛ ويقال : يوم أغر محجل : يعنى يوم أبيض ، من أيام المفاخر ، أو من أيام النصر والسعادة .
(٢) الشئون : مجارى الدمع فى العين .

وطننا ، ولا تجعلْ مُستقبلنا ومستقبل بلادِنا فى أيديهم يسوموننا الخسف ويُذيقُوننا ألوانَ العذاب فإن أبيتَ إلا أن تفعلَ ، فجرِّد سيفَك من غِمدِه واقطع به أعناقنا ، فذلك خيرٌ لنا من هذا العيش المؤلمِ المرير .

وكان يتكلمُ ودموعُه تنهمرُ على خدّيه دائبةً ما تَهْدَأ ولا تَرقأ (١) وأبوه يضطرِبُ بين يديه اضطرابَ الدَّوْحَةِ (٢) المائلةِ فى مهاب الرياح الأرْبَع ، ويزْفِرُ زفرات مُحْرِقة ملتهبة ، وقد قامت فى نفسه تلك المعركةُ الهائلة التى تقوم فى كل نفسٍ شريفة بين الواجب والشهوة ، يتمثل له الأولُ فى وجه قسطنطينَ العبوسِ المكتئب ، فيرتعدُ ويضطرب ، وتتراءى له الثانيةُ فى وجه بازيليدَ الضاحك المشرق ، فيخورُ ويتضعضع ، لا يستطيعُ أن يُعْرِضَ عن نداء وطنه ، لأنه نداءٌ يَصِلُ إلى أعماق قلبه ويَبلغ صميمَه : ولا أن يُفْلِتَ من سلطانِ شهوته ؛ لأنه سلطانٌ قاهر جبار لا يُفلت منه قوى ولا ضعيف . فوضع إحدى يديه على عينيه ، ومدّ الأخرى أمامه كأنما يُطارِد أشباحا مخيفة هائلة تتقدّم نحوه ، وظل يصيحُ بأعلى صوته : آصِمتْ ياقسطنطين ! اصمت يا ولدى ! لا أستطيعُ أن أحتملَ أكثر مما احتملْت ، آهٍ من القدر وأحكامِه ، والدهرِ وتصرُّفاته ، وويلى من الشقاء المكتوب ، والبلاء الحَتْم ، مَن لى بيدٍ قوية تنقذنى من هذا الشقاء المحيطِ بى ، فقد أصبحتُ وما على وجه الأرض أحد

---

(١) ولا تجف

(٢) الدوحة : الشجرة العظيمة .

أَجدَرُ بالرحمة والشفقةِ منى ، الْعَنُونى جميعاً يا أولادى وأبناء وطنى ، وانتقِموا منى بأفظع أنواع الانتقام ، فإننى خائنٌ لئيم لا أستحقُّ رحمتكم ولا مَغْفِرَتكم ، ثم صَمَتَ صمتاً عميقاً لا ينبُس فيه ولا يتحرك ، وظل على ذلك هُنَيهَةً ثم نظر أمامه نظرةَ الدَّهشة والذُّهول ، فخيلَ إليه أنه يرى شبحاً يتقدَّمُ نحوه ، فمد يدَه إليه وأخذ يناجيه ويقول : بازيليد ! ألا تستطعينَ أن تُحِلّينى من ذلك القَسَم الذى أقسمتُه لك ، فقد ضَعُف كاهلى عن احتماله واحتمال أثقاله ، لا أُريد مُلكا ولا تاجا ولا صَولَجانا ، بل لا أُريد أن أبقى على ظهر الأرض يوما واحدا ، الموت ! مَن لى به فى هذه الساعةِ فأَنجُوَ من همومى وآلامى .

فتهلل وجهُ قسطنطينَ غبطة وسروراً ، ووَقَعَ فى نفسه أن الرجل قد تلوَّم واسْتَحْذَى وبدأ يَسْتَفْظع ذَنْبَه ويَسْتَهوِله ، فَتَرَامى على عُنقه واحتضَنَه إليه وظل يقولُ بنغْمةِ الفارح المغتبِط : أَحْمَدُك اللهم قد أنقذتَ لى أبى ! فَحَنَا أبوه عليه وظلا متعانقَين ساعةً لا يُسْمَعُ فيها إلا تردُّدُ أنفاسِهما ونشيجُ بكائهما ثم افترقا بغتة واشرأبَّا بأعناقِهما (١) حينما سَمِعا فى لحظة واحدة حَسِيسَ (٢) جيشِ العدو وهو مُقبلٌ من ناحية الشَّمال ، وكان ما سَمِعاه فى هذه المرة حقيقة لا وَهْما ، فارتجلا فى وقت واحد حركتين مختلفتَين ، إذ وَثَبَ قسطنطينُ إلى الرايةِ وَثْبَةَ عُظْمَى لِيُضرِمَ نارَها ، ووثب أبوه وثبة أعظمَ منها فاعترض سبيله

---

(١) اشرأب (على وزن اطمأن) : رفع رأسه لينظر .

(٢) الحسيس : صوت خفى .

وصَرَخ فى وجهه : قِفْ مكانك ، لا تتقدمْ خُطوة واحدة ! فأصاب قسطنطينَ مِثْلُ الجنون وقال له : تَنَحَّ عن طريقى أيها المجرمُ الأثيمُ فقد فرغ صبرى ، قال : إنك لا تستطيعُ أن تَمُرَّ إلا على جُثتى . فارتعد قسطنطينُ وبَرَقَتْ عيناه وذهبت به الأفكارُ مَذَاهِبَها وقال له : أىُّ كلمةٍ هائلةٍ نطقتَ بها أيها الرجلُ الشقىّ ، وأىَّ قضاءٍ قَضَيْتَ به على نفسك ! تَنَحَّ عن طريقى فإن نفسى تُحَدِّثنى بأفظع ما تُحَدِّثُ به نفسٌ صاحِبَها فى هذا العالم ، قال : إنك لا تستطيعُ أن تقتل أباك . قال : أستطيع أن أفعل كلَّ شىءٍ فى سبيل وطنى ، إنى وقفت سيفى طول حياتى على خدمتك وحمايتك والذَّود عنك أيام كنتَ لوطنك وقومِك ، أما الآن فإنى أُغمد ذلك السيف نفسه فى صدرك طيبَ النفس مثلوج الفؤاد ، لأنى أعتقد أنى لا أُغمده فى صدر أبى ، بل فى صدر خائن وطنى . قال : لا تنس أن لى يداً أقوى من يدك وسيفاً أمضى من سيفك . قال : إنى لا أجهل ذلك ولكنك تُقاتل فى سبيل الدناءة والخيانة ، وأُقاتل فى سبيل الواجب والشرف ، واللهُ مُطَّلعٌ علينا من علياءِ سمائه ، وهو الحَكَمُ العَدْلُ بيننا . فجرّدَ برانكوميرُ سيفَه وهجم على ولده هجمة قوية ، فجرّد الآخَرُ سيفه وتلقى ضرباتِه بأشدّ وأنكى منها ، وما هى إلا جولةٌ أو جولتان حتى حكم القاضى العادلُ حُكمه فسقط الظالم ونجا المظلوم !

فنظر قسطنطينُ إلى جُثة أبيه الساقطةِ تحت قدميه نظرة جامدة صامتة لايعلم ما وراءها ، ثم أغمد سيفَه وصاح بأعلى صوته : رَحْمَتَكَ اللهم فإنى

لا أستطيع أن أفعلَ غيرَ ما فعلْت ، ثم هجم على الرابية فأشعل نارها فضاءت بها أرض البلقان وسماؤها .

وفى اليوم الثانى نشر الملك ميلوش على الأمة هذا البلاغ :

« حاول العدوُّ ليلةَ أمسِ تَبْييتَ جيوشِنا وأَخْذِها على غِرَّة [1] وكاد يظْفَرُ بذلك لولا أن انتبهت الفرقة الأولى من الجيش ونهضت للدفاع بقيادة ضابطها العظيمِ قُسطنطينَ برانكومير ، فأَبْلَتْ فى المعركة بَلاء عظيما ووقفت العدوَّ فى مكانه ساعةً كاملة ، حتى نهضت بقية الفرق لمساعدتها ، فدارت معركةٌ هائلةٌ بين الجيشين انتهت بانتصارنا وانهزامِ العدو إلى مواقعه الأولى ولكنّ المصاب العظيم الذى عمَّ الجيشَ وَشَمِلَ الأمّةَ بأَسْرِها هو موتُ قائدِنا العظيم «ميشيلَ برانكومير» فقد وُجد فى أثناء المعركةِ قتيلا بضربة سيف فى خاصِرَتِه [2] بين صُخور تراجان تحت القوس الرومانى ، وسيُحْتَفَل بتشييع جنازته غداً احتفالا عسكريا جليلا يليقُ بمقامِ شهيد الوطن وبطله العظيم ! » .

أما الذى خَلَفَه فى قيادةِ الجيش فهو ولدُه الضابط الشجاعُ مُنقِذ الأمّة والوطن « قسطنطينُ برانكومير » .

---

(١) التبييت : المفاجأة ليلا . والغرة (بكسر الغين) : الغفلة .

(٢) جنبه .

الضمير

مضى الليل إلا قليلا وقسطنطينُ ساهرٌ فى فِراشه لا يَغْمَضُ له جفن ، ولا يطمئنُ له جَنب ، لأنّ مَصْرَعَ أبيه فى شِعب تراجان لا يزال ماثلا أمام عينيه ما يفارقُهُ لحظةً واحدة ، وكان كأنه يرى الجُثَّةَ بين يديه تتلوَّى وتَتَمَرْمَرُ وتنظرُ إليه نظرات حادّة ملتهبة ، وكأنّ جُرْحَهَا الدامىَ بين أضلاعها لا يزال يتدفقُ منه الدم فثار من مكانه هائجاً مذعوراً وحاول أن يطرُدَ هذا الخيالَ عن نظِره فلم يستطِعْ ، فمدّ يدَه إلى ذلك الجرْحِ الموهوم الماثلِ أمامه يُريدُ أن يعترضَ سبيلَ الدمِ المتدفّقِ منه فغلَبه على أمره وازداد فى تدفقه وانبثاقه حتى ملأ أرضَ الغرفةِ جميعها ، وصَبَغَ بلونِه الأحمرِ القانى جميعَ ما فيها من فرش وأثاث وآنية وثياب ، فاشتدّ فزعُه وارتياعُه ولم يستطع أن يحتملَ أكثرَ مما احتمل ، فوقع مَغشيا عليه .

وظل على ذلك ساعة حتى انْفَشَأَتْ حرارةُ دمه (١) ، فاستفاق من غَشْيَته وجلس إلى نفسه يُناجيها ويقول :

إننى على ثقة من نفسى ، لم أفعل إلا مايجبُ على كلّ رجلٍ شريف أن يفعلَه ،

---

(١) انفشأت : هدأت .

فما هذا الخوفُ الذى يُساوِرُنى ! وما هذه الصُّوَرُ المخيفةُ التى تتراءى لى فى يقَظتى وأحلامى ؟ كان يجبُ علىَّ أن أضربَ ـ لأنه مامِنْ ذلك بُدٌّ ـ فَفَعلت ، فلِمَ أرتابُ فى عملى ! ولِمَ أرتعدُ ارتعادَ المجرمين الآثمين ؟ إن الرجل لايخاف إلا ذَنْبَه ، وأنا لم أُذنب إلى أحد ، لأن الرجل الذى قتلتُه كان يُريدُ أن يقتل أمة بأَسْرها فأنقذتُها بقتله ، بل أنقذتُ عشرين أمة من أُمم المسيح فى أوروبا . ألا يجوزُ للإنسان أن يقتل الأفعَى دَفْعاً لأذاها ، والوحشَ كَسْرا لشرَّته [1] واللصَّ اتقاءً لضرره ! ؟ إننى لم أفعل غيرَ ذلك ، فمالى أرى وجهَ السماء أحمرَ قانئا ليلَهُ ونهارَه ، ومالى أجدُ مذاقَ الدم فى كل كأس أشربها من ماء أو خمر ؛ ومالى لا أستطيع النظرَ إلى يدى خوفا ورُعبا ! إننى لم أَقتل أبى ، ولكنى أحْيَيْتُه لأنه إن كان يحيا اليوم فى قُلوب الناس حياةَ العظمةِ والمجد ، وكان تمثالُه إلهًا معبودا يُطِيفُ به الشعبُ [2] ويُقبل أركانَه ويتبركُ بلمسِه واسْتِلامِه ، وكان اسْمُه طُغراءَ الأسماء الشريفةِ المسجَّلةِ فى التاريخ ـ فإنما ذلك بفضلِ الضرْبة التى ضربتُه إياها ، ولولا ذلك لعاش بقيةَ أيامِ حياته عَيْشَ الأدْنياء الساقطين ، أو مات مَوْتَ الخونة المجرمين .

وهنا انتفض واصفرّ وارفضَّ جبينُه عَرقا [3] ، وقال بصوت ضعيفٍ مختنق : نعم ! إن ذلك كله صحيحٌ لارَيْبَ فيه ، ولكنى قتلتُ أبى !

---

(١) حدته ونشاطه .

(٢) أطاف يطيف : أحاط ، أما طاف (بغير الهمزة) فمعناها : دار .

(٣) ارفض : تفرق ، ويقال : ارفض جبينه عرقا ، يعنى تناثر العرق على جبينه .

ثم لم يلبثْ أن عادت إليه مخاوفُه ووساوسُه ، فرأى الجثّةَ والمَصْرَعَ ، والطّاعنةَ النجْلاء ، والدّمَ المتدفّق ، وسمع تلك الأصواتَ التى تهتفُ به فى كلّ مكان : « يا قاتلَ أبيه ! يا أكبر المجرمين ! يا عارَ البشريّةِ وشنارها »(١) ، فجُنّ جُنونه ، وثار ثائرُه ، وعادت له سيرته الأولى .

ولم يزلْ هكذا ليله كله : يهدأُ حينا ويثورُ أحيانا ، حتى نشر الفجرُ رايته البيضاء فى آفاق السماء ، فاستَرْوَحَ رائحةَ الأنس وشعر ببرْد الراحة ، فأوَى إلى مَضْجَعِه .

كذلك كان شأن قسطنطينَ دائما ، وكذلك كانت أكثرُ لياليه مذ حدث ذلك الحادثُ العظيم .

---

(١) الشنار : أقبح العيب .

الأزهار

دخلت ميلتزا غرفةَ قسطنطين صباح ليلة من تلك الليالى الطويلةِ الليْلاء ، وبيدِها باقة من الزهر تريد أن تقدمَها إليه ، فرأته مضطجعاً على كرسيه مستغرِقا فى نومه ، وآثارُ الدمع ظاهرة بين أهداب عينيه وفى صفحَتَىْ خدّه ، فرَثَتْ لحاله وجلست تحت قدميه تَرْقُبُ يَقَظته رُقْبى المُجوسِىِّ طلعة الشمسِ من مَشرِقِها ، فحمل النسيمُ إلى رأسه نفحاتِ تلك الأزهار ، فانتعش وتحرّك فى مكانه وفتح عينيه فرآها فابتسم وتهلّل وقال : ميلتزا ! قالت : نعم ياسيدى ، نَعِمْتَ صباحاً ونعمَتْ جميعُ أيامك بُكورُها وأصائلها . (١) ثم مدّت يدَها إليه بالباقة وقالت له : قد اقتطفْت لك صباح اليوم هذه الأزهارَ الجميلة التى تحبُّها أكثرَ من سواها ، لتَستَرْوِحَها فتُروِّحَ عن نفسِك بِرَيّاها(٢) همومَها وأحزانَها فتناول الباقةَ منها واستنشقها وتَنَفَّسَ تَنفُّسَة طويلة ، ثم نظر إليها نظرة حلوة عذبة وقال لها :

أتعلمين يا ميلتزا أننى أستنشقُ فى هذه الأزهار التى تُهدينها إلىّ أنفاسَك الأريجة العَطِرَة ، وأن الذى ينعشُنى ويُحْيينى ويُرفه عنى همومى وآلامى فى هذه

---

(١) البكور : جمع بكرة ، وهى أول النهار . والأصائل : جمع أصيل ، وهو آخر النهار .

(٢) الريا (بفتح الراء وتشديد الياء) : العطر .

الباقة إنما هو أريجك لا أريجُ الأزهار . فارتعدت ميلتزا لأوّلِ كلمةِ حُبّ سمعتها من فمه ، وظلّ قلبُها يخفق خفقاناً شديداً ، وملَكَ الدّهش عليها عقلَها ولسانها فلم تستطع أن تنطق بحرف واحد ، وظلت شاخصةً إليه ببصرِها ، فاستمر فى حديثه يقول : لقد كنتُ أطلبُ الموت قبل دُخولك وأتمنّاه تمنياً شديداً ، حتى رأيتُك ورأيتُ هذا الجمالَ المتلألئ فى عينيك وشممْتُ أنفاسَكِ العطِرة المنبعثةَ من أوراق أزهارِك ؛ فأحببتُ الحياة من أجلك ، وأصبحتُ أتمنى أن أعيشَ لأراك وأقضىَ بقيّةَ أيامِ حياتى بجانبك ، فشكراً لك ياصديقتى ، فأنت النّجمةُ الوحيدة الباقية فى سماء حياتى بعد ما غرَبَتْ جميعُ نجومِها وكواكبِها ، والشُّعاعُ المضىء الذى ينبعثُ إلى أعماق سجنى المظلمِ الحالكِ فيبدّدُ ظلمتَه ويُنيرُ جوانبَها ويملأ قلبى أملا ورجاء ، والواحةُ المُخْصِبَةُ الخضراء التى ألجأ إليها كلما قطعتُ مرحلةً فى صحراء هذه الحياة المحرِقة فأنامُ تحت نخيلها وأبترِدُ ببرْدِ مياهها . قالت : ليتنى أستطيعُ أن أكونَ عند ظنّك بى يا سيدى ، بل ليتنى أستطيعُ أن أقاسمَكَ هذه الهمومَ والأحزان التى تعالجُها ، أو أحتمِلها عنك جميعَها حتى لا أراك بين يدىَّ إلا باسما متطلقا فى جميع آنائك وساعاتك ، إننى أَمَتُكَ الوضيعة المسكينة يا سيدى ، وليس لفتاةٍ مثلى أن تسألَك عن سبب همومِك وأحزانك ، ولكننى أستطيع أن أضرعَ إليك أن تسرّيَها عن نفسك وتهوّنَها عليك ، فأنت رجل فاضل شريف ، وقد قلتَ لى قبل اليوم : إنّ الرجل الفاضل الشريف يعيش من شرفه وفضيلته فى سعادة لا يهْنأُ بمثلها

الملوكَ فى قصورهم . قال : ومن أين لك أنى رجل فاضل شريف ؟ قالت : لو لم تكن كذلك لما أحببتُك ! فابتسم قليلا وقال : إذن أنت تُحبينى يا ميلتزا ! قالت : نعم يا سيّدى ، أكثرَ من كل شىء فى العالم ، ولولا كرامةُ أمّك عليك وجلال ذكراها فى قلبك لقلتُ لك إنها ما كانت تحبك فى حياتها أكثرَ مما أُحبك اليوم ! فأطرق قسطنطينُ لتلك الذكرى المؤلمة ، ومرت بجبينه سحابة سوداء قاتمة ، فرفع رأسه وقال لها : حَسْبك يا ميلتزا ، لا تُذكّرينى بأمى ، فما أحسبُها الآنَ إلا ناقمةً علىَّ فى قبرها ، تلعنُنى وتَسْتَعْدِى ربّها علىَّ [1]. وتسألُ الله صباحَها ومساءها أن يُعاقبنى وينتصف لها منى ؛ واخَجْلتاه من نفسى يوم ألقاها فى تلك الدار ، ويجمعُ الموقف العظيمُ بينى وبينها ! فارتاعت ميلتزا عند سماع هذه الكلمة وذهبت بها الظنونُ كلَّ مذهب ، وظلت تنظر إليه نظراً غريباً حائرا ، وقد بدأت تفهم ذلك السرَّ الهائل الذى أعياها أمره زمناً طويلا ، وتدركُ السببَ فى حزن قسطنطينَ هذا الحزن الشديد الذى يُقيمه ويُقعده ويُساور نفسَه ويُقلقها منذ قُتل أبوه حتى اليوم ، وكأنه قد ألمَّ بما دار فى نفسها [2] وتردّد فى خاطرها ، فظل ناظراً إليها بلهفٍ وشوق ينتظرُ أولَ كلمة تنطق بها بعد هذا الصمت الطويل انتظارَ المتهم أولَ كلمة ينطق بها قاضيه بعد سماع دفاعه ، حتى رآها تبتسمُ وتتهلل وتقول له ؛ هوّنْ عليك الأمرَ يا سيدى ،

---

(١) تستعدى : تستغيث .

(٢) عرف ما يدور فى نفسها .

ولا تَرْتَبْ فى نفسك ولا فى ضميرك فما أنت بمجرم ولا قاتل ولكنك رجل شريف ، ولولا أنك كذلك لما أحببتك ، فمد يدَه إليها فتناول يدها وقال لها : أتَعِدِينى يا ميلتزا أن تكتُمى فى صدرك كلَّ شىء ؟ قالت : نعم أَعِدُك وعداً لا أخيسُ به . قال : وشىءٌ آخَر يا ميلتزا ... قالت : وماهو يا سيدى ؟ فأدناها منه وضَمَّها ضَمَّةً خفيفة إلى نفسه ، وقال لها : أتُقسمين لى على الحب حتى الموت ؟ قالت : نعم يا سيدى أُقسم لك . قال : بِمَ تُقسمين ؟ قالت : بكل ما تسْكُنُ به نفسُك ، قال : ضعى يَدَكِ على هذا الخِنْجَرِ وأقسمى به ، قالت : أَفعلُ على شرط واحد ، قال : وماهو ؟ قالت : أن تُهدِيَنى إياه بعد ذلك . قال : وماذا تَصنعين به ؟ قالت : أَقتلُ به نفسى يوم يَحِلُّ بك مكروه ! فناولَها إياه وهو يقول فى نفسه : رُبما حلَّ بى عما قريب ذلك المكروهُ الذى تتوقعين ! فوضعتْ يدها على الخِنجر وأقسمت به أن تُحافظ على حبه والإخلاص له حتى الموت ؛ فتهلَّل قسطنطينُ فَرَحا وسرورا ، ونَزَعه من خاصِرَتِه وعلَّقه فى مِنْطَقَتِها ثم ضمها إلى صدره ضمة شديدة وقبلها فى ثَغْرِها قُبلة كانت عزاءها الوحيد عن كل ما مر بها فى حياتها .

حديث

جُرح الجندى « أورشُ » فى إحدى المعارك فلزِم بيته وتولت ابنته « أنّا » معالجته ، وكان يزوره بعضُ أصدقائه من الجنود فى الفَيْنَةِ بعد الفينة[1] ، فزاره فى أحد الأيامِ الجندىُّ « لازارُ » وكان لا يزال حارسا لقصر القائد « برانكومير » والخادمَ الأمينَ لأرملته بازيليدَ وثقتَها المؤتمنَ على جميع أسرارها ودخائلها ، فقال له « أورشُ » حين رآه : هل من جديد اليوم يا لازار ؟ قال : نعم قد فشل جيشُنا فى الواقعة الأخيرة كما فشل فى الواقعة الماضيةِ والوقائع التى تقدمتها ، ولا أعلمُ متى تنتهى هذه الانكسارات ، فقد تمت عِدتها حتى الأمسِ عَشرا ، ولا أعلمُ ما يأتى به الغد ؛ أما القَتْلى والجرحى فهم كثيرون لا يُحْصَى لهم عدد ، وما بيتُك بالبيت الوحيد الذى تترقرق فيه الدماء والدموع ، ففى كل بيت من بُيوت المدينة شاكون ومتألمون .

فقال أورش : لا ريب أن قسطنطينَ غيرُ أبيه ، ولقد فقدنا بفقد ذلك الرجل العظيم قائدا كان خيرَ القوّاد وأبرعهم وأوسعَهم علما وتجربة وأعلَمَهُمْ بموارد الأمور ومصادرها ، لم يُفلت النصرُ من يده فى جميع معاركه أكثرَ من مرة أو اثنتين ، حتى مات فى الوقعة الأخيرة وسيفه مُصلَتٌ فى يده مِيتةَ البطل

(١) الحين بعد الحين .

الشريف ، فمات بموته الظَّفرُ والانتصار ، وأدار الزمان وجهه عنا ، ولا يعلم إلا اللهُ متى يُقبلُ بعد إدباره .

فقالت له ابنته « أنا » وكانت جالسة تحت قدميه تَضمدُ له جِراحه : لقد قلت لى يا أبت قبل اليوم : إن قسطنطينَ قائدٌ عظيم لا يُشَق له غبار ، فما هذا الرأى الذى تراه فيه الآن ؟ قال نعم ، كان قائدا عظيما فى حياة أبيه وتحت لوائه وأما اليوم وقد استقل بالرأى وحدَه وانقطع عنه ذلك الوحى الذى كان يُرشده ويَهديه ، فقد انتقض عليه أمرُه ، وأصبح خائرا مضطربا لا يدرى ماذا يفعلُ ولا كيف يُصَرِّفُ وقائعه ومواقفه ؟ فقالت : إن جيشنا لم ينكسر قط فى واقعة من تلك الوقائع التى تذكرونها كما تتوهمون ، لأنه لم يتخلَّ عن مركزه ولم يُسلم شِعْبا واحدا من تلك الشِّعاب التى يحرسها ، أما القتلى والجرحى وكثرتهم فهم فى جيوش أعدائنا أكثر منهم فى جُيوشنا أضعافا مضاعَفة ، وحسْبُنا ذلك فوزا وانتصارا .

فقال لازار : لقد كانت خُطة القائد ميشيل خطةَ دفاع محض لا يحُولُ عنها ولا يتزحزح ، والجبالُ بين يديه تحميه وتحفظ مواقفه ، أما قسطنطينُ فقد أخذ نفسَه بالهجوم على العدوّ فى حصونه ومواقعه ، وترك الجبال التى تحميه من ورائه ، فكثر القتلى والجرحى فى جيشنا ، وهى خطة مخاطرة ومغامرة لا يركبها إلا القائدُ اليائس أو المجنون : ولا أعلم أىُّ الرجلين هو ؟

قال أورش : أحسَبُه يائساً قانطاً ، فإنى أشعرُ كما يشعر كثير من الناس

أن سَحْنَتَهُ قد تغيرت منذ موت أبيه تغيراً عظيماً ، وأصبح حزيناً منقبِضاً لاتفارق الكآبة عينيه وجبينَه ، ولم أر فى حياتى ثاكلا حَزِنَ على فقيده حُزنَ هذا المسكينِ على أبيه . قال لازار : ولقد حدثنى بعضُ خدم القصر وحُرّاسِه أنه يستيقظ من نومه فى بعض لياليه صارخا متفزِّعا يستغيث ويستنجد كأنما هو يندم على جريمة ارتكبها ، أو يخاف شبحاً هائلا مقبلا عليه .

فقالت « أنا » إنكم تظلمون قائدنا ظلماً عظيماً ، فقسطنطينُ أفضل القواد وأشرفهم ، وما هو بجان ولا مجنون ، فنظر إليها لا زارُ شَزْراً وقال : بل هو جانٍ أو على وشْكِ ارتكاب جريمةٍ هائلة ، فقد رابنى منه مُذْ ولِىَ قيادةَ الجيش عَفْوُه عن الأسرى الذين يُقدَّمون إليه ، وإنزالُه إياهم منزلة الإكرام والإعزاز واهتمامهُ بشأنهم كأنهم ضيوف وافدون لا أعداءٌ محاربون ؛ كما رابنى منه أكثرَ من ذلك اعتزاله الناس وانقطاعُه عنهم جميعاً ، حتى عن زوجِ أبيه التى تُحبه حُبَّ الأم ولدَها وفلذةَ كبدِها ، فإنه مذ هجر قصرها وعاش فى بيته الجديد الذى يسكنه اليوم لم يَزُرْها مرة واحدة ولا دعاها إلى زيارته حتى الساعة .

فقالت « أنا » : أكلُّ أفعالِ قسطنطينَ قد أصبحت مُريبة عندكم لا تُحْمَلُ على مَحْمِلٍ حَسَن ، حتى إكرامُه للأسرى المساكين وإشفاقه على ذُلهم وضعفِهم ؟ قال : ليس هذا رأيى وحدى ، بل رأى أكثر الجنود ، فقد أصبحوا يعتقدون أن قائدهم يقودهم إلى الموت الزؤام عمداً لِسرٍّ خفىٍّ يُضْمره فى نفسه ، وما أحسِبهم قادرين على احتمال هذه الحالة زمناً طويلا . فاحْتَدَمَتْ « أنا »

غيظاً وقالت : إن قسطنطينَ أشرفُ مما تظنون ، وهل ترون مُحالا أو غريباً أن يَحزنَ المرءُ على أبيه بعد فقْده ؟ ثم التفتت إلى أبيها وقالت له بسذاجة ورِقة : أُقسم لك يا أبت لو أن مكروهاً أصابك من هـذا الجُرْحِ الذى فى فَخْذِك ـ لا أَذنَ اللهُ بذلك ولا قَدَّره ـ لحزنتُ عليك حزناً يَصْغُرُ بجانبه حُزْنُ قسطنطينَ على أبيه ! فابتسم أبوها وضمها إلى صدره وقال لها : إننا لا نذهبُ فى أمره يا بُنيَّة حيث ظننت ، ولا نتهمُه بخيانة ولا بمالأة ، ولكنا نخافُ عليه أن يكون قد نفَذَ اليأسُ إلى قلبه فضعضعه ، وأن تكون نفسه قد حدّثته بمسالمة أعدائه ومؤاتاتهم ، فأعدّ لذلك العُدَّة التى رآها ؛ واليأسُ هو الخديعة الكبرى التى يدُسُّها الشيطانُ دائما فى نفوس الأمم الضعيفة التى يريدُ قتلها والقضاء عليها .

وهنا دخل بعضُ الجنود لعيادة أورش ، وتلاهم آخرون من بعدهم ، واشتركوا جميعاً فى الحديث ، وأنشأ لازار ينفثُ سموم سِعَايَتِه ووِشايته فى صُدورهم ، حتى أجمعوا رأيهم على أن قسطنطينَ يخون أمّته ويمالئُ أعداءَها عليها ، وأنّ الرأى الصوابَ أن يرفعوا أمرَه إلى الملك ليأمر بعزله عن القيادة ويَعْهَدَ بها إلى غيره ، ثم انصرفوا .

الدسيسة

بينما كان قسطنطين جالساً صبيحة يوم فى غرفته ، إذ دخل عليه حارسُ بابه يستأذنُه لبازيليدَ أرملةِ أبيه ، فانقبض صدره واشمأزّت نفسه ، لأنه لم يكن رآها ولا أذن لها بمقابلته مذ مات أبوه حتى اليوم ، فأذِن لها بعد لأْى (١) ، فدخلتْ عليه وحَيَّتْه وجلست بجانبه ، وأنشأت تُعاتبُه فى انقباضِه عنها ووَحْشته منها وسُوء رأيِه فيها ، وتُقسم له بحُرْمة ذلك الدفين الكريم الذى كان يُحبه ويُحبها أنها لا تُضمر له فى نفسها مَوْجِدَة ولا حقداً ، ولا تحملُ له بين جنبيها غيرَ الحب الخالص والوُدّ المتين ، ثم قالت له : إننى برغم آلامى وأحزانى التى أُعالجها مذ نزلتْ بى تلك النازلةُ العظمى حتى اليوم ، لم أر بُدًّا من أن آتىَ إليك فى هذه الساعة الشديدة عليك راجية أن أعينك عليها وأُهوّنَ عليك أمرها ، وربما وجدتُ السبيل إلى خلاصك منها . فالتفت إليها مُندهشا (٢) وقال : أىَّ ساعة تريدين ؟ وما هى الشدّة التى أنا فيها ؟ قالت : كأنك لا تعلم أن الخطر الذى يُحيط بك عظيم جدًّا ، لا قِبَلَ لك باحتماله وأنّ جنودك قد أصبحوا ينْقِمُون عليك نِقْمَةَ عُظْمَى ، ويُبغضونك بغضا لاحدَّ له ، ولا تُحدُّثهم

---

(١) بعد بطء وشدة .

(٢) الفصيح : دهشا ، أو مدهوشا .

نفوسُهم بشيء سوى تلَمُّسِ الطريق إلى الوصول إليك ليقتلوك . فاصفرّ وجهُهُ وقال : وماذا ينقِمون منى ؟ قالت : ينقِمون منك مخاطرتك بهم فى تلك المعارك الهائلة التى تكاد تفنيهم وتَقضى عليهم ، وفَشلَك فى جميع الوقائع التى قمتَ بها مذ وليتَ قِيادة الجيش حتى اليوم ، وقد امتد بهم الحقد عليك . إلى سوء الظنّ بك ، فأصبحوا يعتقدون أنك خائنٌ مُمالئٌ للعدو ، وأنك ماسلكتَ هذه الخطةَ المُعْوَجَّةَ فى حروبك إلا لتمكّنَ الأعداء من اجتياز الحدود واقتحام البلاد ، فانتفض انتفاضةً شديدة ؛ واربدَّ وجهُه ، ونَزَتْ فى رأسه سَوْرَةُ الغضب (١) وقال : مَنْ الذى يتهمُنى بالخيانة ؟ قالت : جنودُك ورجالك ، قال : إنهم كاذبون فيما يقولون ما فى ذلك رَيبٌ إن كنتِ صادقةً فيما تقولين ، قالت : ما كَذَبْتُ عليك قبل اليوم ولا غَشَشْتُك فى النصيحة ، ولقد زادهم حقداً عليك ومَوجِدَةً أن العدوّ قد اجتاز الجبالَ ليلة أمس ، وربما لا يمرّ يومان أو ثلاثة حتى يكون قد وصل إلى أبواب العاصمة ، وسيصل بَريدُك الساعةَ فينقُلُ إليك هذا الخبرَ المحزِنَ الأليم . فصرخ صرخة عُظْمَى دَوَّتْ بها أرجاءُ الغرفة ، ووثب من مكانه ثائرا وهو يقول : آهِ يا وطنى العزيز ! وابتدرَ البابَ يريدُ الخروج منه ؛ فأمسكت بيده واجتذبتْه إليها وقالت له : مهلا ، أين تُريد ؟ قال : أدعو جنودى وأجمع من تفَرَّقَ منهم فى الثكنات والقلاع ، وأذهب بهم إلى الحدود للدفاع عن القلعة الكبرى : فالوطن فى خطر عظيم . قالت : لاتفعل ، فقد خرج الأمر

---

(٢) تحرك فى نفسه الغضب الشديد .

من يدك ، واعلم أن جميع جنودك المقيمين فى ثكنات المدينة وأرباضها [١] قد أصبحوا متمرّدين عليك لا يُطيعونك ولا يأتمرون بأمرك ! فلم يحْفلْ بكلامها وأسرع إلى النافذة وأَشرفَ منها على الساحة العامّة وظل يصيح : أيها الجنود ! النَّفيرَ النفير ! الأَهْبَةَ الأهبة ! [٢] فما سمع الجند صوته ورأوا وجهه حتى هاجوا واضطربوا وأخذوا يصيحون داخل القصر وخارجَه : ليسقُط الخائن ! ليسقط المجرم ! فظل يُشير إليهم بيدِه يحاولُ إسكاتَهم واستِرْعاء أسماعِهم وهم مستمرّون فى ضجيجهم وصياحهم لا يهدأون ولا يَفْتُرُون ، فعاد إلى مكانه يائسا متضعضِعا ليس وراء ما به من الهمّ غاية .

فدنت بازيليدُ منه وقالت له : قد علمت الآن أننى لم أكذبْك القولَ ولم أخدعْك ، وأننى لم أُقْدِمْ إليك مَقْدَمى هذا فى هذه الساعةِ العصيبة إلا لتخليصك وإنقاذك وإنقاذِ الوطنِ وأبنائه ، فرفع نظرَه إليها مندهشاً وقال : أنتِ ؟ قالت : نعم أنا ، فى الوقت الذى لا أجدُ فيه بجانبك من يأخذُ بيدك أو يُعينك على أمرك ، فأَصْغِ لما أقول : إن الملك سيزورُ قصرَكَ الساعةَ ليستنجدَ بك على دفع هذا الخطرِ الداهم ، وإن شئتَ فقل ليستعين بك على الاحتفاظ بتاجه الذى يضِنّ به ضَنَّه بحياته ولا يحفِل بشىء سواه ، وقد علم الجندُ ساعةَ حضوره فهُمْ ينتظرونه فى هذه الساحة ، حتى إذا طَلَع عليهم فى موكِبه هُرِعوا إليه [٣]

---

(١) الأرباض : الضواحى .

(٢) انفروا انفروا : تأهبوا تأهبوا .

(٣) هرعوا (بالبناء للمجهول) : أسرعوا .

ضاجّين صارخين يتقدمهم جرحاهم وزَمْناهم (١) ورَمَوْك بين يديه بتلك التهمة العظيمة التى يرددونها الآن ويصيحون بها فى كل مكان ، فإما أن يصدقهم فقد هلكْتَ هلاكا لانجاة لك مِن بَعده ، أو يرتابَ بهم فلا يرى له بُدًّا من أن يسلك سبيل الحكمة فى مداراتهم ومدافعتهم ، فيأمرَ بعزلك عن القيادة والعهدِ بها إلى غيرك إرضاءً لهم ، وتسكيناً لثائرهم ، فإن فعل فقد انتشرتْ لك فى الأمة قالة سُوءٍ لاتستطيع أن تمحوَ عارَها عنك أبدَ الدهر .

فظل يرتعدُ ويضطرب ويُرددُ بينه وبين نفسه : رَبِّ ماذا أصنعُ فالخَطْبُ أعظمُ مما أحتمل ! فاقتربت منه ووضعتْ يدها على كَتِفِه وحنت عليه حنوَّ الأمّ على رضيعها ، وقالت له بتلك النغْمة العذبة الجميلة التى قتَلت بها أباه من قبل : نعم يا بُنىَّ ، إنّ الخطبَ أعظمُ مما تحتمل ، ولم يبقَ بين يديك إلا أن تَسلُكَ تلك الطريقَ التى شرع أبوك فى سُلوكها قبل موته ثم عَجَز عن الاستمرار فيها إلى نهايتها ، فخَسِرَها وخسر حياتَه على أثرِها . فنظر إليها مندهشاً وقال : ماذا تريدين ؟ فصَمَتَتْ لحظةً . ثم استنجدتْ قُوَّتَها وشجاعتَها وقالت له : أتدرى ياقسطنطين لمَ ذهب أبوك إلى شِعْب تراجان وجلس تحت القوس الرومانىّ فى الليلة التى مات فيها ؟ فرجعتْ إلى ذهنه تلك الذكرى المؤلمةُ وقد بدأ يفهمُ ماترمى إليه فى حديثها ، فراعه الأمرُ وهاله ؛ إلا أنه تَماسكَ وتَجلّدَ وظل ناظراً إليها نظرات جامدةً ساكنة أشبه بنظرات الموتى

---

(١) الزمنى (كجرحى) جمع زمن (ككتف) : وهو المصاب بعلة مزمنة .

فى النَّزْعِ الأخير ؛ فاستمرّت فى حديثها تقول : إنه ذهب إلى ذلك المكان ليستقبلَ الجيش التركىَّ عند قدومه ويأذنَ له باجتياز الحدود والوصول إلى فيدين ، ولو فَعَلَ لَنجّى الوطنَ من خطر عظيم ، ولأطفأ نارَ هذه الحرب التى تلتهم البلادَ التهاما يكاد يقْضى عليها ، ولكان اليومَ ملكا جالساً على عرش البلقان لاتمثالا أجوف منتصِباً فى الميدان ، ولكنه عجز فى الساعةِ الأخيرة عن الاحتِفاظ بقوّته وعزيمته ، فما رأى سوادَ الجيشِ التركى مُقْبِلا نحوه حتى نَسِىَ عُهوده ومواثيقَه ، وابتدَر الرّابيةَ الأولى (١) فأشعل نارَها وأيقظ الجيش من رَقْدته واستَثاره للأُهْبَةِ والدفاع ، وما كفاه ذلك حتى جرّد سيفَه للقتال وخاض المعركةَ بنفسه ، وظل يُقاتل حتى هَلَك .

فعجب قسطنطينُ لتلك الجرأةِ الغريبة التى لا يشتملُ على مثلها صدرُ امرأة فى العالم ولا رَجل ، ثم قال لها بهدوء وسكون لا يعلمُ إلا اللهُ ما يَكْمُنُ وراءهما : وبعدُ فماذا تريدين ؟ فأَطْمَعَها فيه سكونُه وهدوءُه ، وخُيّلَ إليها أنه قد استَخْذى للأمر واستسلم ، فقالت : إنّ العهدَ السلطانىَّ لأبيك بمُلْكِ البلقان لايزال باقياً بيدى حتى الساعة ، وهو مُذَيّلٌ بتوقيع السلطان ومختومٌ بختم آلِ « برانكومير » فلسنا فى حاجة إلى تغيير حرف منه أو كتابة عهد جديد ، وقد قابلتُ رسولَ القائدِ التركى ليلةَ أمس واتفقتُ معه على كل شىء ؛ فكن أعقلَ من أبيك وأبعدَ منه نظرا ، واعلم أنّ الترك لابدّ مُقْتَحِمُو هذه

---

(١) ابتدرها . سبق إليها .

البلاد وآخذوها ، أَبْطَئُوا أم أَسْرَعوا ، فقد اجتازوا عقبةَ الجبال اليوم ، وسيجتازون بقيةَ العقباتِ غداً أو بعد غد ، مامِن ذلك بُدّ ، فخيرٌ لك أن تُهادِنَهُمْ وتُسالمهم وتتخذ عندهم يداً تنفعُك لديهم غدا ، وأن تفتحَ لهم بيدك ما اسْتَغْلَقَ عليهم من أبواب البلاد بدلًا من أن يغلبوك عليها ، لتحتفظ لنفسك بذلك العرشِ الذى هو عرشك وعرش أبيك من قبلك لولا طمعُ ذلك المختلس وفُضوله !

إن الجنود يَضِجُّون ويَصْخَبُون ويوشكُ الملِك أن يَحْضُرَ فيرفعوا إليه أمرك ويهتفوا بين يديه بسقوطك وخيانتِك ، فيأمر بالقبض عليك وسَجْنِك ، فاغْضَبْ لنفسك وافعل ما أشرتُ به عليك لتستطيعَ أن تأمر أنت بالقبض عليه وسجْنه بعد بضع ساعات ، ويدين لك البلقان من البُسْفُورِ إلى الأدرياتيك .

أما أنا فإنى لا أطلبُ جزاء عندك عن نصحى لك وإخلاصى إليك ، سوى أن تمنحَنى لديك منزلةَ الأم الحَنون ، وتأذنَ لى أن أجلس على أَدْنَى درجةٍ من درجات عرشك ، أخْدُمُك وأمدُّك برأيى ومَشُورتى ، وأستظلُّ بظلال مجدك وشرفك حتى الموت . ثم أخرجَتْ من حقيبتها العهدَ السلطانىَّ وأَرَتْهُ إياه ، فأخذ يقرؤه وهو فى يدها حتى أَتَمَّه ، فقالت له : قُم الساعةَ وسافِر إلى الحدود وقُدْ جَيْشَك بنفسك وتقهقَرْ به كأنك تفعل ذلك مُضطرا ، وأَنقِذْ نفسك ووطنَك من هذا الخطر العظيم .

هاهى طُبولُ الملكِ تقترب منا شيئاً فشيئا ، واعلم أن قلم القدرة معلقٌ الآن بين أُصْبُعَى اللهِ ليكتب به فى صفحات الغيب أحدَ الحكمين : إما لك بالصُّعود إلى العرش ، أو عليك بالهبوط إلى أعماق السجون ؛ فأَحْسِنْ الاختيارَ لنفسك ولا تكن عدوَّها الأحمقَ المأفون .

فرفع رأسه ونظر إليها نظرة ناريّة ملتهبة ، لو رسمتها ريشةُ المصوِّر الماهر لأحرقت القرطاس الذى رُسمتْ فيه ! ثم قال لها بهدُوء وسكون : قد قلتِ لى يا سيدتى منذ هُنيهة إن أبى قد ذهب إلى شعب تراجان ووقف تحت القوس الرومانى ليستقبلَ الجيش التركىَّ عند قدومه ، ويأذنَ له بالمرور ، فخانه عزمُه ونسى ميثاقَه فلم يفعل ، وأنا أقول لك : إنك مخطئة فى سوء ظنك به ، فإنه لم يزل متمسكا برأيه فى تلك الليلة محافِظاً على عهده ، حتى حالت الحوائلُ بينه وبين الوفاء ..

قالت : وما الذى طرأ عليه ؟ قال : طرأ عليه الموتُ ، فحال بينه وبين مايريد ! قالت : وهل تعلم كيف مات ؟ قال : نعم أنا أعلمُ الناس بذلك ، لأنه لم يكن حاضراً معه فى تلك الساعة وفى ذلك الموقف سواى . فارتعدتْ ونظرت إليه مندهشة وقالت له : ألم يَمُتْ قتيلا بيد أعدائه ؟ قال : لا ، بل بيد أصدقِ أصدقائه ! بل بيد أقربِ الأقرباء إليه وأمسهم به رَحِماً (١) ، فطاش عقلها وجُنّ جنونها وصاحت : ماذا تريد أن تقول ؟ قال : أُريد أن أقول . إننى أنا الذى

---

(١) أمسهم به رحماً . ألصقهم قرابة

الذى قتلتُه بيدى جزاءً له على خيانته لوطنه ! قالت أنت يا وَلَدَهُ وفِلْذَةَ كبدِه ؟ قال : نعم ، وأنتِ التى وضعتِ فى يمينى ذلك السيف الذى قتلتُه به ، لأنك أفسدتِ نفسه وقتلتِ شعورَه ، وأغْرَيْتِهِ بخيانة وطنه ، وسَلبْته جَوهرةَ الشرفِ الثمينةِ التى كانت تضىء مابين جنبيه ، وكانت أكرمَ الجواهرِ وأغلاها ، فلم أر بدّا من أن أقتله لأستنقذ الوطن من يده ، فتألمى ما شئت أيتها المرأةُ الشريرة وتَعَذَّبى ، وتَجَرَّعى كؤوسَ الحسرةِ والندم على ما أفْلَتَ من يدك من أمانيك وآمالِك . وحسبى انتقاما منك على جريمتك التى أجرمْتِها إلىَّ وإلى أبى وإلى الطبيعة ، أنْ تَعْلمى أننى أنا الذى خَيَّبت آمالك وهدمتُ بيدى ذلك الصَّرح العظيم الذى أنفقتِ فى تشييده أيام حياتك !

نعم أنا الذى قتلتُه بيدى واقترفتُ أعظمَ جريمة يقترفها إنسان فى العالم ، ولولاك لما أقدمت على ذلك ولاخطر ببالى أن إنساناً فى الوجود يُقْدِم عليه ، ولو كان فى استطاعتى أن أكشفَ أمرَكِ وأهْتِكَ الستر عن جريمتك لفعلت ، ولكننى لا أستطيعُ أن أفعلَ ، إشفاقا على سمعة ذلك الرجل المسكين الذى قضى عليه سوء حظه أن يكون شريكا لك فى حياتك وفى جرائمك ؛ فعيشى معذَّبةً مِثلى فريسةً لآلامك وأحزانك ، واستنفِدى ماء شؤونِكِ (١) حُزناً على العرش الذى فاتَكِ والزَّوجِ الذى رحل عنك ؛ وأسْهَرِى لياليَك الطِّوالَ خائفة مُرْتَعِبَةً من شبح الجريمة التى اجْتَرَمْتِها ، وخيال الدماء التى سفكْتِها ، ولْيَطِرْ

(١) ماء جفونك .

قلبُك خوفا وهلعاً كلما ذكرتِ أنك قد وضعتِ فى يد الولد سيفاً ليقتلَ به الوالد ، فمات الوالد قتيلا ، وعاش الولد معذَّباً ؛ ولتَطُلْ حياتُكِ على ظهر الأرض لتطول آلامُك وأحزانُك ، حتى إذا نزل بك الموت نزل بهيكل يابسٍ من العظم ، قد أحرقتْه اللَّوْعات ، وأضوَتْه الحَسَرات (١) ، وافترستْه الهموم والأحزان .

وهنا سمعتْ ضجة عظيمة فى الساحة ، وهاتفون يهتفون : الملك ! الملك ! فأكتأب قسطنطينُ وتَقبَّضَ وجههُ ، وتهللت بازيليدُ وتَطلَّقَتْ ، وطَوتْ وثيقةَ العهد برِفق ووضعتْها فى جَيبها ، ثم قالت له : نعم ، إننى سأعيش ياقسطنطينُ حزينة باكية كما قلتَ ، مامن ذلك بُدّ ، ولكننى لا آذَن لك أن تعيش يوما واحداً بعد اليوم على ظهر الأرض حتى لا ترى بعينيك مصائبي وآلامى ، وتَشمَتْ بهمومى وأحزانى ، فقد دسستُ لك الدسيسةَ فى الجيش حتى ثار عليك ووضَعَ فى عُنقك ذلك الغُلَّ الثقيل ، غُلَّ الخيانةِ الذى لا خلاصَ لك منه ، وسترى الآن بقيَّةَ ثأرى وانتقامى !

وهنا دخل الملكُ والجنودُ من حوله يتقدَّمهم لازارُ وهو يصيحُ وهم يصيحون من خَلْفه : إنه خائنٌ يا مولاى ، قد مالأ الأعداءَ علينا ، إنه أفْنَى رجالنا ، ورَمَّل نساءنا ، ويتَّمَ أطفالنا ؛ فَأَعْدِنا علَيه (٢) وانتقِمْ لنا منه

---

(١) الضاوى : الهزيل الضعيف ؛ ويقال أضواه المرض . هزله وأضعفه .

(٢) أعدنا عليه : انصرنا . أعدى يعدى ، كألقى يلقى .

وللوطن ! والملكُ يقول : دعُونى وشأنى ، لا أُصدقُ شيئا مما تقولون ، ثم التفتَ إلى قسطنطينَ وقال له : أيها البطلُ العظيم ؛ إن الوطن فى خطر ، وقد جئت أستنجدُ بك على دَفْعِ هذه النازلةِ التى نزلتْ بنا ، وسأكون فى المعركة المقبلة جُنديا من جُنودك ، أُقاتلُ بجانِبك ، وأُبارك خطواتِك ، ولا تبتئسْ بما يقولُ هؤلاء القوم ، فإنهم لا يعلمون من أمرِك شيئا ؛ إنا لا نعرفُ اليوم تحت سماء البلقان بطلا غيرَك ، وما كُنا نعرفُ قبل اليوم بطلا غيرَ أبيك ، ولا نُضمرُ لكما فى قُلوبنا غيرَ الإجلال والإعظام ، لِمَكانِكما من خدمة الوطن وحمايته والذود عنه ، أما الحظُّ الذى فارقَك فى تلك الوقائع الماضية فأُبشرك أن عهد فراقه لايطول ، وأنه سيعود إليك بعد أيام قلائل بالوجه الطَّلْق الجميل ، وستمحو بانتصاراتك المقبلةِ جميع آثار تلك الهزائم السالفة ، ثم التفت إلى الجنود وقال لهم : يا أبطال البلقان وحُماتَه ، لا تَخْذُلوا قائدكم ، ولا تَخْفِرُوا ذِمَّته ، (١) فهو سيدُكم اليوم ، وابنُ سيدِكم بالأمس ، واعلموا أننى لا أُصْغِى إلى تهمة لا أعرف لها برهاناً ولا دليلا .

فصمَتَ القومُ صمتاً عميقا ، وساد بينهم السكوتُ هنيهة ، وقد بدأتْ مَراجِلُ غيظهم ومَوْجِدَتِهم تفْتُرُ وتتقاصر ، وهنا انفرج الجمع وإذا بيازيليدَ تتقدمُ رُوَيْداً رويداً كما ينسابُ من مَكْمَنه الأرقمُ (٢) نحو موْقف الملك حتى

---

(١) لا تخونوا عهده .

(٢) الأرقم : أخبث أنواع الأفاعى .

مَثَلَتْ بين يديه ؛ وقالت له بصوت عال سمعه جميع الجنود : أنا التى أتهمه يا مولاى ، وأنا التى أُقَدِّمُ لك على تهمته الدليلَ والبرهان ! فدهش الملكُ عند رؤيتها ، وقال : الأميرة ؟ قالت : نعم يا مولاى ، أَرمَلَةُ القائد ميشيل برانكومير ، إننى أتهم هذا الرجلَ بخيانة قومه وبمالاة أعدائهم عليهم ، وأقول لك : إنه كتب بينه وبينهم عهداً على أن يفتح لهم أبوابَ البلاد فى الساعة التى يُريدونها . فيمنحوه فى مقابلِ ذلك عرشَ البلقان وتاجَه ، وقد دعانى الساعة لِيَشرَكَنى معه فى هذه الجريمة التى يُريد اقترافها ، ويسألنى أن أُساعده عليها ؛ فلم أر بدّا من أن أرفع أمره إليك ؛ أما البرهان الذى تُريده فها هو ذا . ومدّت يدَها إليه بتلك الوثيقة ، فتناولها الملك ذاهلا وأخذ يقرؤها وهو يرتعد ويرتجف ويقول فى نفسه : ماذا أرى ؟ إخلاءُ الحدود ! اجتيازُ الجبال ! العرش ! التاج ! ختمُ برانكومير ! يا لَلْهَوْل ويا لَلْفظاعة ! ثم نظر إلى قسطنطينَ فإذا هو تمثالٌ جامد لا يتحرك ولا يطرِف (١) ، فتقدم نحوه خطوة وقال : ما هى كلمتُك يا قسطنطين ؟ فصمت ولم يقُل شيئاً ، فالتفتتْ إليه بازيليدُ وقالت له : أتستطيعُ أن تنكر شيئاً مما أقول ؟ فأوثَقَتْهُ وَثاقاً لايستطيع معه قَبْضاً ولا بَسْطا ، إلا أنه رفع رأسَه ونظر إليها نظرةً غريبة مبهمة لم يعلم غيرها ماذا يُريدُ بها ، ثم عاد إلى صمته وإطراقه ، فهاج الجندُ وأخذوا يصيحون : القتلَ القتلَ ! الانتقامَ الانتقام ! وظل الملك يُشيرُ إليهم بيده

---

(١) يطرف : يحرك جفنه .

يدعوهم إلى السكون والهدوء حتى هدأوا ، فتقدم نحو قسطنطينَ خطوة ثانية ووضع يده على كَتِفِه وسأله مرة أخرى : ماذا تقول يا قسطنطين ؟ دافع عن نفسك ، فإن سكوتَك حجةٌ عليك ؛ لاتَصْمُتْ ولا تُطْرِق ، وقل كلمة واحدة فإنى أُصدِّقُك فى كل ماتقول . فاستمرّ فى صَمْته وإطراقه وهو يقول فى نفسه : كيف أُدافع عن نفسى ، وأىُّ سبيلٍ أسلكه إلى ذلك ، والسبُلُ جميعُها وَعْرَةٌ شائكة ، لا تَقْوَى قدمى على اجتيازها ، إننى لا أستطيعُ أن أُبَرِّئَ نفسى إلا إذا اتهمتُ أبى ، وقد قتلتُه مرةً فلا أقتله مرة أخرى ! ثم ابتسم ابتسامة الممتعض وقال فى نفسه : قد كنتُ أطلبُ الموتَ بكل سبيل حتى جاءنى يسعى إلىَّ بقدَميه ، فَلِمَ أخشاه وأرتاعُ منه ؟ فليَكنْ ما أراد الله أن يكون . ثم رفع رأسه إلى الملك وقال له : ليس عندى ما أقوله لك يا سيِّدى فاصنع بى ما تشاء .

فصاح الجمهور : ليسقُط الخائن ! لِيُقْتَل المجرم ! وهجموا عليه ليَفْتِكوا به ؛ فاعترض الملك طريقَهم وقال لهم : دَعُوه وشأنَه ، فإن أمرِه موكولٌ إلى مجلس القضاء ، أما نحن فليس بين أيدينا إلا أن نفكرَ الآن فى الطريق إلى الدفاع عن وطننا وحمايتِه ، ودَفْعِ هذه النازلة الْمُلِمَّةِ بنا ، فسيروا بنا أيها الجنود الأبطال إلى ساحة الحرب وأنا قائدُكم .

ثم التفت إلى الحُرَّاس وأمرهم بالقبض على قسطنطينَ والذهابِ به إلى السجن حتى يَفْصِلَ القضاء فى أمره .

فهتف به قسطنطينُ وقال : لى كلمةٌ واحدة أُحب أن أقولها لك يا مولاى ،

فذُعِرَتْ بازيليد ؛ وارتعد لازار ، واشْرَأَبَّ القومُ بأعناقهم ، والتفت إليه الملك وقال : ماذا تريدُ أن تقول ؟ قال : أنت تعلمُ يا مولاى أننى جندى قديم ، وُلِدْتُ فى ساحة الحرب ، وقَضَيْتُ حياتى فى ميادينها ، ولا أُمْنيةَ لى فى الحياة غير أن أموت فيها ؛ وأنت الآن قائدُ الجيش وصاحبُ الأمر والنهى فيه ، فَأْذَنْ لى أن أسيرَ فى رِكابك جُنديا صغيرا ، لا قائداً ولا أميرا ، لأقاتل معكم حيث تُقاتلون ، ولك علىّ عهدُ الله وميثاقه ألا أعودَ من تلك المعركة إلا منتصراً أو محمولا على الأعوادِ [١] إلى حيث آوِى إلى منزلى الأخير الذى لا رَجْعَةَ لى منه ، عَلَّنى أُكَفِّرُ بذلك عن زَلَّتى التى زَلَلْتُها ، وأنتقمُ من نفسى بنفسى . فعجب الملك لأمرِه وظل يُرَدِّدُ نظرَه فى وجهه هُنيهة وكأنّ نفسه كانت تُحدّثه ببراءته وطهارته ، إلا أنه لم يلبث إلا قليلا حتى زَوَى وجهه عنه [٢] وقال له : لا أستطيعُ أن آذَنَ لك بشىء ، فالموتُ فى ساحة الحرب منزلةٌ لا ينالُها إلا الأمناءُ المخلصون !

فتنفَّس الجمعُ الصُعَداء [٣] وخرج الملكُ تُحيط به جنودُه وحُرّاسه وهو يردِّدُ بينه وبين نفسه : وارَحْمَتَاهُ لك أيُها الفتى المسكين !

فتقدّم الحُرّاس إلى قسطنطين فَقَيَّدوه ، وجاءت بازيليدُ فوقفت بجانبه وقالت له بصوت خافت لا يسمعه سواه : نعم ، إننى سأقضى ما بقى من أيام

---

(١) النعش .

(٢) زوى وجهه : قبضه .

(٣) نفساً طويلا .

حياتى حزينة باكية متألمة كما قلت ، ولكنى قد انتقمت لنفسى ، وحَسْبى ذلك وكفى ، فلم يرفع نظره إليها احتقاراً وازدراء ، بل رفع رأسه إلى السماء وقال : قد كنتُ أسألُك الموتَ يا ربّ فى كل حين ، وأَضْرَعُ إليك فيه ليلى ونهارى ، فبعثت به إلىّ ، ولكن فى أفظع صورة وأَهْوَلِها ؛ فامددْ إلىَّ يَدَ معُونَتك ورحمتك ، لأستطيعَ أن أشرب الكأس حتى تُمَالَتها (١) وخذ بيدى فى شدَّتى فقد تخلَّى الناسُ جميعاً عنى ، وأصبحتُ أحتملُ ما أحتملُ من الآلام وحدى ، وليس بجانبى من يخفِّفُ عنى لَوعتى ، أو يمسح بيده دَمعة من دُموعى .

فخرجت ميلتزا من وراء ستار كانت مختبئة فى طياته ، وتقدّمت نحوه وجَثتْ تحت قدمَيْه الموثَقتيْن وقالت له : لست وحدَك يا مولاى فهأنذا ! فتهلَّل وجهُه بعد عبوسه وقال : أَحْمَدُك اللهمَّ حمداً كثيراً . ثم خرج مع الجنود يَرسُف فى قُيوده ، حتى وصلوا به إلى السجن فأودعوه ، وأَوصدوا الباب من دونه ، فَربَضَتْ ميلتزا على عَتَبة الباب رُبُوض الكلب الأمين على قبر سيده الدفين ، وأنشأت تَنْدُبه وتَبكيه بكاءً تهتز له جوانبُ الأرض وتتداعى له أركان السماء !

---

(١) الثمالة : البقية الأخيرة فى الكأس .

التمثال

انتصر الملك فى الواقعةِ التى حضرها وقاد فيها الجيوشَ بنفسه انتصاراً عظيما كان الفضل الأكبرُ فيه لتلك الرُّوحِ الدينية التى كان يَبُثُّها فى نُفوس جُنده أثناء المعركة ، فقد كان يمشى بين الصُّفوف بِطَيْلَسَانِه الأسودِ ، والصليبُ فى يده ، يهتفُ باسم المسيح والمسيحيَّة ، ويُنادى : دافِعوا يا أبناءَ يَسوعَ عن دينكم وكنيستكم ، واعلموا أنكم إن غُلبتم اليوم على أمركم فلن تقوم للصليب قائمة أبد الدهر . وهم يَسْتَبْسِلون ويستَقْتِلون ويصبرون للموت صبرَ الكرام ، حتى بَرَقَتْ لهم بارقة النصر ، فأطبقوا على جُيوش العدوّ من كل جانب ، فتقهقرت أمامهم إلى ماوراء الحدود ، وتخلت عن جميع المعابر والجبال التى اجتازتها بالأمس . فاحتفل الشعبُ بهذا النصر احتفالا عظيما دام عدّةَ أيام ، ولم يكن للناس حديثٌ فيه سوى حديثِ قسطنطينَ وجريمتِه التى اجترمها والجزاء الذى سيلقاه فى سبيلها ، وكلهم يتمنى بِجَدع أنفِه [١] أن يشاهدَ مَصْرعَه ، ويرى دِماءه تتدفَّقُ من بين لَحْيَيْه [٢] .

ولم يَزَل هذا شأنَهُم حتى دنَا اليومُ الذى يجتمع فيه مجلسُ القضاء للنظر

---

(١) جدع الأنف : قطعه .

(٢) اللحيان : منبتا شعر اللحية على الجانبين ، يريد عنقه .

فى تلك القضية ، فذهب الملكُ ليلةَ المحاكمة إلى السَّجين فى سجنه ، وخَلَا به ساعةً يسألُه عن جريمته وشركائه فيها وأعوانه عليها . وحاولَه فى ذلك مُحاولة كثيرة ، فلم ينطق بشىء ولا دافع عن نفسه بحرف واحد ، حتى عَيَّ المَلِكُ بأمره (١) فأمر بإخراجه من السجن إلى الساحة العامة المُقامِ فيها تمثالُ أبيه ، وأمر أن يُشَدَّ بأغلالٍ إلى قاعدةِ التمثال نِكايةً به وتمثيلا ، ثم قال له : انظر أيها الخائن ماذا بَنَى أبوك لنفسه من المجد ، وماذا صَنَعَتْ يدُك بذلك البناء الذى ابْتَنَاه ! وتَرَكه وانْصَرَف .

فلما انفردَ بنفسه أطرق ساعةً يُفكرُ فى شأنه وفى مَصيرِه الذى صار إليه ، ثم رفع رأسَه إلى التمثال ، وكان الليل قد هدأ وسكن ونامت كلُّ عينٍ فيه حتى عُيون العَسَس والحرّاس ، فأنشأ يُناجيه ويقول :

هنيئاً لك أيها الرجلُ مجدُك وعظمتُك وتمثالُك الشامخُ الرفيعُ الذاهبُ بعُلُوِّه فى آفاق السماء !

هنيئاً لك الصيتُ البعيدُ والشُّهرة الذائعة والشرفُ الخالد المسجَّلُ لك فى صفحات التاريخ ، وأن الناس لا يَمُرُّون بتمثالك حتى يَخْشُوا تحت قاعدتِه جُثَيَّهُمْ تحت قدمَى الإلهِ المعبود !

أتَرَى بعد ذلك أنك مظلومٌ أو مغبونٌ ، أو أن الضَّرْبة التى أصابتْك من يدى قد حَرَمَتْكَ شيئاً فى هذه الحياة تَندبُهُ وتأسَفُ عليه ؟

---

(١) تحير الملك فى أمره .

لقد كنتَ فى الساعةِ الأخيرة من أيام حياتك ، ولم يكن بينك وبين الانحدار إلى قبرِك إلا بِضع خطوات قِصار ، فكل ما كان منى لك أننى أنقذتك من تلك المِيتة الدنيئةِ السافلة التى كنت تريدها لنفسِك ، وقدَّمْتُ إليك بدلا منها ميتةً شريفة مقدَّسة ترْمُقها العيون وتتقطَّعُ من دونها الأعناق ؛ وألبستُك تاجاً أشرفَ من ذلك التاج الذى كنتَ تطلبه وتسعى إليه ، وأجلستُك على عرشٍ أرفعَ من جميع عُروش الأرض ، وهو عرشُ التاريخ !

لا تَسْتَبْقِ فى نفسك شيئاً من الضِّغْنِ علَىّ ، ولا تُضْمِر لى فى قلبك وأنت فى عالَمِ الحقيقةِ المجرَّدة الذى لا يُخالِطه كَذِبٌ ولا رياء ، غيرَ مايجبُ على المريضِ المُبِلّ (١) أن يُضمِرَه لطبيبه الذى شفاه من دائه ، وأنقذَه من شقائه ، فإن كان لابدّ لك أن ترى أننى أجرمتُ إليك ووترْتُك (٢) فهأنذا أكفِّر عن جريمتى بأعظمِ ما كفَّر به مجرمٌ عن جريمته !

انظر يا أبتِ ماذا صنعتْ فَعْلتُكَ التى فَعلْتَ بولدِك ، ها هو الغلُّ يُحيط بعنقِه حتى كاد يخنُقه ، وها هى القيود تَعض قَدَميه وتدميها ، وها هو السيفُ مجرَّدٌ فوق هامته لا تَطلعُ الشمسُ من مَشرِقها حتى يسقُط عليها فيفْصِلَها عن جُثتها ، وها هم الناس جميعاً رجالا ونساءً ، كباراً وصغارا ، يلعنونه بألسنتهم وقلوبهم فى كلّ مكان ، ويضمرون له من الحقد والبغضاء

(١) أبل المريض : نجا من مرضه .
(٢) وتره : أصابه بمكروه .

ما لو امتدّ إلى جسمه لأحرقه وأحاله رماداً باردا .

أنت المجرم وأنا المعاقب ، أنت الخائن وأنا المأخوذ بخيانتك ، أنت المتمتّعُ بنعمة الشرف العظيم الذى لاتستحقُّه ، وأنا المتسربلُ بِسِرْبالِ الإهانة الدائمة التى لا أستحقُّها ! لقد أخطأ القَدَرُ فى أمرنا مرتين ؛ فرفعك من حيث تستحقُّ الوضْع ، ووضعنى من حيث أستحقّ الرَّفع ، ولو أنه أنصفَ فى حُكمه بيننا لأخذ كلٌّ منا مكانَ صاحبه ، فأصبح التمثالُ لى ، وأصبح السجنُ لك !

هنيئاً لك مجدُك وشرفُك وصِيتك وسمعتك ، وما أُهنّئك ، تهنئةَ الهازئ الساخر ، بل تهنئةَ الفارح المغتبِط لأنك أبى ، ورئيسُ أُسرتى ، وسيدُ قومى وحبيبٌ إلىّ جدًّا أن يعيش أبى عظيما فى حياته وبعد مماته !

إنّ آلامى يا أبت عظيمة جدًّا لا تستطيعُ أن تحتملَها نفسٌ بَشَرية فى العالم ، ولكنْ يُهَوّنُها علىَّ أننى أموت من أجلك وفى سبيل مجدك وشرفك ، وأننى لم أخرج من الدنيا حتى رأيت تمثالك العظيم مشرفا من علياء سمائه على جبال البلقان وهضابها كما تشرف الشمس من أبراجها على ماتحتَها .

ما أنا بنادمٍ على ما كان ، ولا خائف مما يكون ، فليأت الموت إلىّ فى الساعة التى يُريدها ، فقد قمتُ بواجبى لك وللبلادى ، وحسْبِى ذلك وكفى .

كان لابدّ لى أن أقتلَك ففعلْت ، ولكننى قتلتُك فيجب أن أُقْتَلَ بك .

كلانا أَجرَمَ وكلانا لقى جزاءَ إجرامه .

أجرمتَ إلى الوطن فانتقمتُ له منك ، وأجرمتُ إلى الطبيعة فمن العدل

أن تنتقم لنفسها منى ، فما ظلمَ أحد منا صاحبَه ولا اعتدى عليه .

ارفع رأسك أيها الرجل تيهاً وعُجْبا ، وزاحِمْ بِمنكِبَيْك أجرامَ السماء وكواكبَها ، فقد غسل ابنُك بدمه جُرمك وعارك ، فإن لم تكن شريفاً بنفسك فحْسبُك شرفا أنك والدُ الولد الشريفِ !

ولم يَزَلْ فى مناجاته هذه حتى مَضَتْ هَدْأَةٌ من الليل ، فالتفّ بردائه ووضع رأسَه على قاعدة التمثال وأسلم نفسه إلى نومٍ طويل .

النهاية

ازدحم الناسُ يوم المحاكمة فى الساحة الكبرى ازدحاما عظيما ينتظرون عودة الملك من مجلس القضاء ليعلنَ حُكمه أمام المتهم ، والمتهمُ هادئٌ ساكن تحت قاعدة التمثال لا ينتظرُ شيئا ، لأنه يعلم أن الموت جزاؤه الحَتْم وقد وطن نفسَه عليه فلم يعد يَحفلُ به .

وإنهم لكذلك إذ أقبل الملكُ تُحيط به حاشيته ، فاشرأَبَّتْ إليه الأعناق لسماع كلمتِه ، ولم يَزل سائرا بين الصُّفوف حتى وقف أمام المتهم ، فنظر إليه نظرة طويلة ثم صاح بأعلى صوته : ياقسطنطينُ برانكومير ، إن الجريمةَ التى اقترفتَها عظيمةٌ جدا لا يَفى بها قتلك وسفكُ دمِك ؛ لذلك رأى مجلسُ القضاء أن يحكمَ عليك بالحياةِ بدلا من الموت ... فقاطعَه الجماهير ، الموتَ ! الموت ! لا بدَّ من قتله ! لايمكن أن يعيش ! فأشار إليهم بالهدوء والسكون حتى يسمعوا بقيَّةَ كلامه ، فهدأوا ، فاستمر يقول : وأن تَظَلَّ طولَ أيام حياتك مقرونا بأغلالِك هذه إلى قاعدةِ تمثالِ أبيك ، ليتردَّد وجهُه فى وجهك ليلك ونهارك ، فتموت فى مكانك حياءً منه وخجَلا ، وأن يؤذنَ لكلِّ مارّ بك من عِليةِ الناس وغَوْغائِهم أن يَبْصُق على وجهك ويصفعَكَ على قَذَالِك ، وينالَ منك ما يشاء إلا أن يَسْلُبكَ حياتَك .

فصاح الجماهير : يعيش الملك ! يحيى العدل ! يسقُط الخائن ! وظلُّوا يُردِّدون هذه الكلماتِ وأمثالها وقتاً طويلا .

هنا ذَرفت عينا ذلك الرجل العظيم الذى لم يبْك فى يوم من أيام حياته لضربةِ سيف ، أو طعْنَةِ رُمح ، أو رشْقَةِ سهْم ، وعلا صوتُ نَحيبه ونَشيجه كما يفعلُ النساءُ الضعيفاتُ فى مواقف حُزنهنّ وثكْلهنّ ، وما كان مثله مَن يبكى أو يذرف دمعة واحدة من دُموعه لو أن الذى كُتب له فى صحيفة الغيب من الشقاء ، وكان الوقوفَ بين السيفِ والنَّطْع[1] ، أو السقوطَ بين آلات العذاب تَنال من جسمه وأطرافه ما تشاء ؛ ولكنه الشرف ، شديد جدّا على صاحبه أن تَنزلَ به نازلةٌ مُذِلَّة ، أو يتصل به ظُفْر جارح من أظفارِ الهوان ، فإذا شعر بشىءٍ من ذلك هاله الأمر وراعَه ، وخارتْ عزيمتُه . ووهَنَتْ قُوَّتُه ؛ فبكى بكاءَ الضعفاء ، وأعوَلَ إعوالَ النساء . ولقد رَضِى قسطنطينُ من حظه من الحياةِ بالموتِ فِراراً من العار الذى لَحِقَه ، وهرَباً من نظراتِ الناظرين إليه ، ومَوْجِدَة الواجدين عليه : أما وقد علم أنه سيعيش والعارَ معاً رفيقين متلازمين لا يفترقان ولا ينفصلان ، فلم يبقَ له بُدٌّ من الجزَع ، ولم يبق بين يديه سبيلٌ غيرُ البكاء ، فبكى ماشاء اللهُ أن يفعل ، وأخذ يُردّد بينه وبين نفسه : يالَلبؤس ! ويا للشقاء ! لقد استحال علىَّ كلُّ شىء حتى الموت !

ثم رفع طرْفه إلى السماء وقال بصوت خافت متقطع : رَحْمتك اللهم

---

(١) النطع : فرش من جلد كان يبسط للمحكوم عليه بالموت ليذبح فوقه فهو بين السيف من فوقه والنطع من تحته

وإحسانَك ، فقد أصبحت عاجزاً ضعيفا لا أملكُ من شئون نفسى شيئا ، فامدُدْ إلىَّ يد عنايتِك ولطفِك لأستطيعَ أن أُتم واجبى إلى النهاية !

وهنا وقف لازارُ فوق هضْبَة مرتفعة ـ وكان لايزالُ رأس الفتنةِ وشعلتَها ـ وأخذ يصرُخُ بصوت عال قائلا : إن رأى مولانا الملك أن يأذَن لنا بتنفيذِ أمره الساعةَ . . . فقد أوشكتْ صدورُنا أن تنفجِر ! فصاح الجمهورُ من ورائه صَيحَتَه ، ودَعَوْا بمثل دعوته ؛ فاصفرَّ وجهُ الملكِ وارتجفتْ أطرافه ارتجافا خفيفا ، ثم قال بصوت خافت متهافت : لكم ماتشاءون ! وتحوَّلَ من مكانه يريدُ الانصراف .

وهنا برزتْ ميلتزا من بين الجماهير ، واندفعتْ نحو قسطنطينَ تَسبِقُ المندفعين إليه ، وهى تقول : فَلْيَسْبَقَ لك أيها المسكينُ على الأقلّ قلب واحدٌ يرحمُك ويعطفُ عليك ! وضمّته إلى صدرها كأنما تُريد أن تقِيَهُ بنفسها ، فسمع الملكُ صوتَها فالتفت فرآها ، ولم يكنْ يعرف من شأنها شيئا ، فعَجِبَ لأمرِها وأشار إلى الجماهير بالسُّكوتِ حتى يعلم ماخطبُها ، ثم مشى نحوَها وقال لها : أتَعلمين أيتُها الفتاة مَن هذا الذى تَحْمِين ؟ وما جريمتُه التى اقترفها ؟ فرفعت رأسَها إليه وألقتْ عليه نظرةَ الليثِ فى عَرِينه ، وقالت له : لا أعلمُ من أمره شيئاً سوى أننى أُحبه ، ولا آذَن لأحد أن يناله بمكروه وفىَّ بقيَّة رَمَق من الحياة !

قال : إنه ارتكب جريمةَ الخيانةِ الكُبرى للأمّة والوطن ، وقد حكم عليه مجلسُ القضاء بالتعذيب ، ولا بدّ من إنفاذ حُكمِه . قالت : إن الحب فوق العدل وفوق القانون وفوق كل شيءٍ في العالم ، فمزّقوني إرْباً إرْبا لتستطيعوا أن تَصِلوا إليه !

فلمعت في ثغر قسطنطين ابتسامةٌ في وسط هذه الدُّجُنّة الحالكة [١] من الهموم والأحزان ، وضمّها إلى نفسه وقال لها : شُكراً لك يامِيلترا ، فقد أحييت نفسي الميتة ، وسَرّيْتِ عني همومي وآلامي ؛ ذودِي عني ياصديقتي ، وصُوني وجهي من العار الذي يُريدون أن يُلْصِقوه به ، فلم يبقَ لي في العالم مَن يرحمُني أو يعطف عليّ سواك !

وأخذ الجماهيرُ يصيحون : اقتُلوهما معا ، مزقوا جسمَيْهما بالسيوف ، وانثروا أشلاءهما في الفضاء .

ثم تدافعُوا نحوهما تدافُع الصُخورِ الهائلةِ من أعالي الجبال ، فصاحت ميلترا : أيتها الوحوش الضارية ؛ والخلائق الساقطة ؛ مهما كثر عددُكم ؛ وعظُمت قوتكم ؛ فإنكم لن تستطيعوا أن تصلوا إليه أو تُلْحِقوا به إهانة من الإهانات التي تضمرونها في نفوسكم ، فإن أَبَيْتُم إلا أن تفعلوا فاعلموا أنني

---

(١) الظلمة الحالكة .

أنا الفتاةَ الضعيفةَ المسكينةَ قادرة على أن أُخلصه من أيديكم ! فلم يَحْفلُوا بكلامها ولم يفهموا غرضها ، واستمرّوا فى اندفاعهم وتدفُّقِهم .

وهنا حدث ذلك الحادث الهائل الذى شَخصت له الأبصارُ ، وذهلَتْ له العقول ، وجَمَدتْ لمنظرِه الدماءُ فى العروق ؛ فقد علمت ميلتزا أن القضاء واقع لامفرّ منه ، وأنّ القوم لابُدّ بالغون من قُسطنطينَ ما يُريدون ، وأن لاطاقة لها بحمايته والذَّود عنه ، وهالَها هَوْلا عظيما وكَبِرَ فى نفسها أن ذلك الوجهَ الشريف المتلألئَ بنورِ الفضيلة والكرم والطهارة والبراءة يُصبح هدَفاً دنيئا لهؤلاء الغوغاء الثائرين ، يَلطِمُه من يلطم : ويبصُق عليه من يبصُق ؛ فلما أصبحوا على مقربةٍ منها ولم يبق بينهم وبينهما إلا بِضْعُ وَثَبَات ، حَنَت عليه وهمست فى أُذنه قائلة : فى استطاعتِك ياسيدى أن تُنجىَ نفسَك بكلمة واحدة تعترف فيها بكلّ شىء ! فرفع طرْفه إلى السماء ، ثم ألقاه على تمثال أبيه ، ثم نظر إليها نظرةَ دامعة حزينة وقال : « لا أستطيع » !

فجرّدت من مِنْطَقتِها خِنْجَرَها الذى كانت قد اسْتَهْدتْهُ إياه فيما مضى ، ورفعتْه فى الهواء ثم طعنتْه به فى صدرِه طعنة نجلاء وهى تقول : مت شريفاً أيها الرجلُ العظيمُ كما عشْت شريفا ، وسأتبعك إلى سمائك التى تَصْعَدُ إليها .

فسقط مُضرَّجاً بدمائه وهو يقول بصوت ضعيف متقطّع : شكراً لك ياميلتزا .

وكان القوم قد بلغوا موقفهما ؛ فرفعت الخنجر مرة أخرى وطعنت به نفسها ، فترنحت قليلا ثم سقطت على مقربة منه ، وكان لا يزال يُعالجُ السَّكْرَةَ الأخيرة : ففتح عينيه فرآها ، فأخذ يسحَبُ نفسَه سحباً حتى بلغ مَصرَعَها ؛ فألقى يده عليها وظل يَجْذِبُها نحوَه كأنما يُحاول أن يضمَّها إلى نفسه فلم يستطع ، فسقط رأسُه على صدرها ، فشعَرتْ به فضاءت مابين شفتيها ابتسامة ضئيلة لم تلبث أن انطفأت وتغلغلت فى ظلماتِ الموت ؛ وظلا على هـذه الحالة حتى فاضت نَفْساهما .

فأثَّر هذا المنظرُ الرهيبُ فى نفوس الجماهير ، وسكنوا فى مواقفهم سكوناً عميقاً لاتتخلله نَأمَةٌ ولا حركة ، وظلوا على ذلك ساعة حتى نطق الملك بصوتٍ خَشن أجش تخالطه رَنة الحزنِ والأسف قائلا . أيها المسيحيون : صَلُّوا جميعاً لهذين البائسَين الشَّقِيين ، واسألوا اللهَ لهما الرحمةَ والغُفران .

ثم رفع قَلَنْسُوَتَه وجثا على رُكبتيه ، فرفع القومُ قبَّعاتِهم وجَثَوا حول الجُثتَين وأخذوا يتلون صلواتِهم بنغمة حزينة مؤثرة ، كأنما هم يَبكون عزيزاً عليهم ؛ أو شهيداً من شهدائهم ! وما فَعَلوا غيرَ ذلك لوكانوا يعلمون . . .

* * *

ظلَّت هذه الحقيقةُ مجهولةً لا يعلمُها أحدٌ من الناس خمسة وثلاثين عاما ؛ حتى جَضَرَ « بازيليدَ » الموتُ ؛ فظلت تَهْذِى بها فى مرضها ؛ وتردِّدُها فى

يَقَظتِها وأحلامها ؛ وتألمُ لذِكراها ألما شديداً على مَسْمَع من كاهنِها وعُوّادِها ؛ حتى فاضت رُوحُها ؛ فعلم الناس ولكن بعدَ عهدٍ طويل ، وبعد أن تَبَدّلَت شؤونُ البلقان غَيْرَ شؤونه ـ أن « قسطنطينَ برانكوميرَ » أشرفُ الناسِ وأفضلهم ؛ وأعظمهم وطنية وإخلاصا ؛ لأنه ضحّى أباه فى سبيلِ إنقاذِ وطنِه ؛ ثم ضحّى نفسَه فى سبيل إنقاذِ شَرفِ أبيه ؛ فبلغ فى وطنيته وشرف نفسه الغايةَ التى لاغاية وراءها .

تمت

الثمن ١٥ قرشا

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 072565714
(NEC)
PQ2211
.C3
P687124
1950